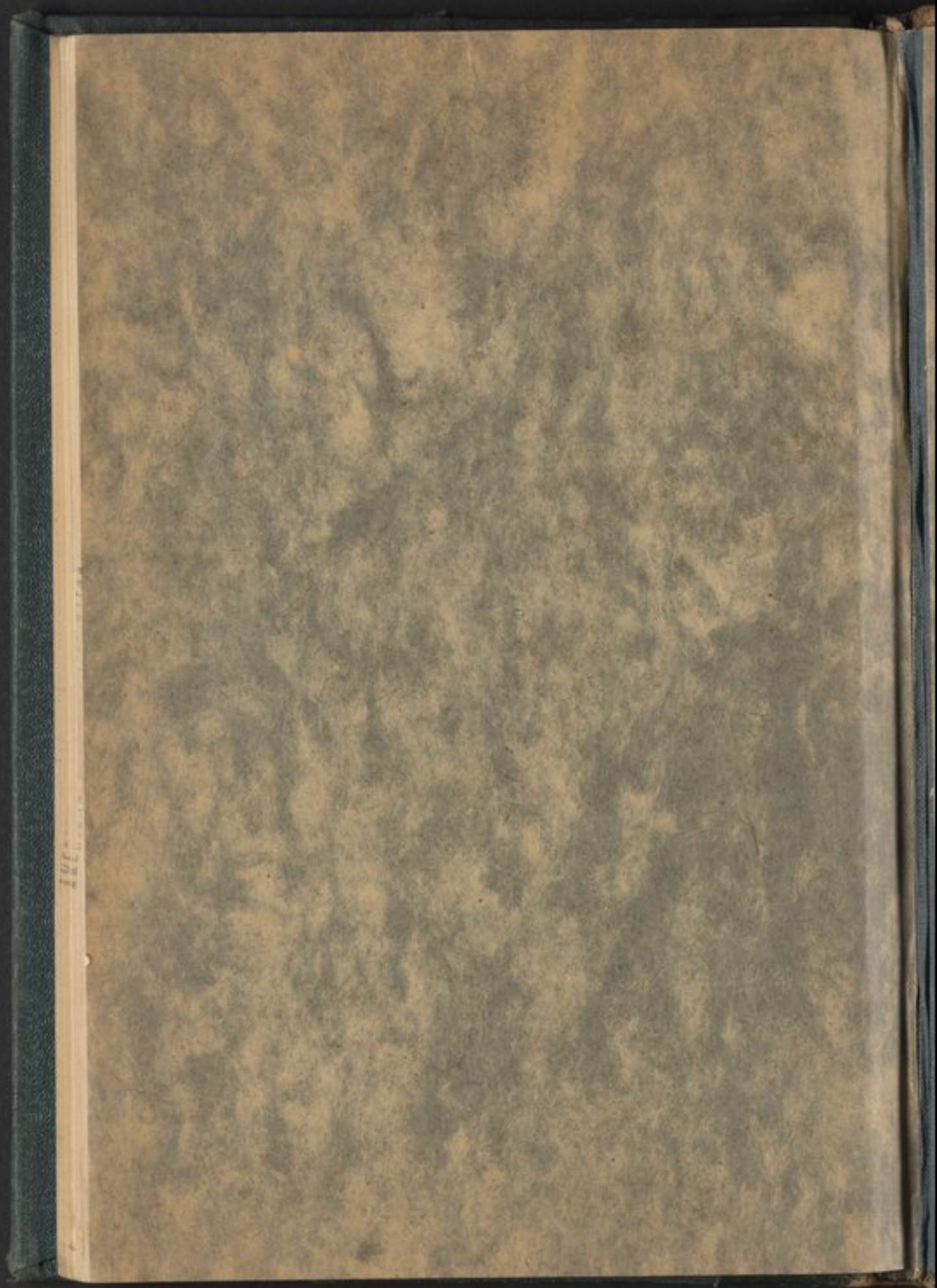
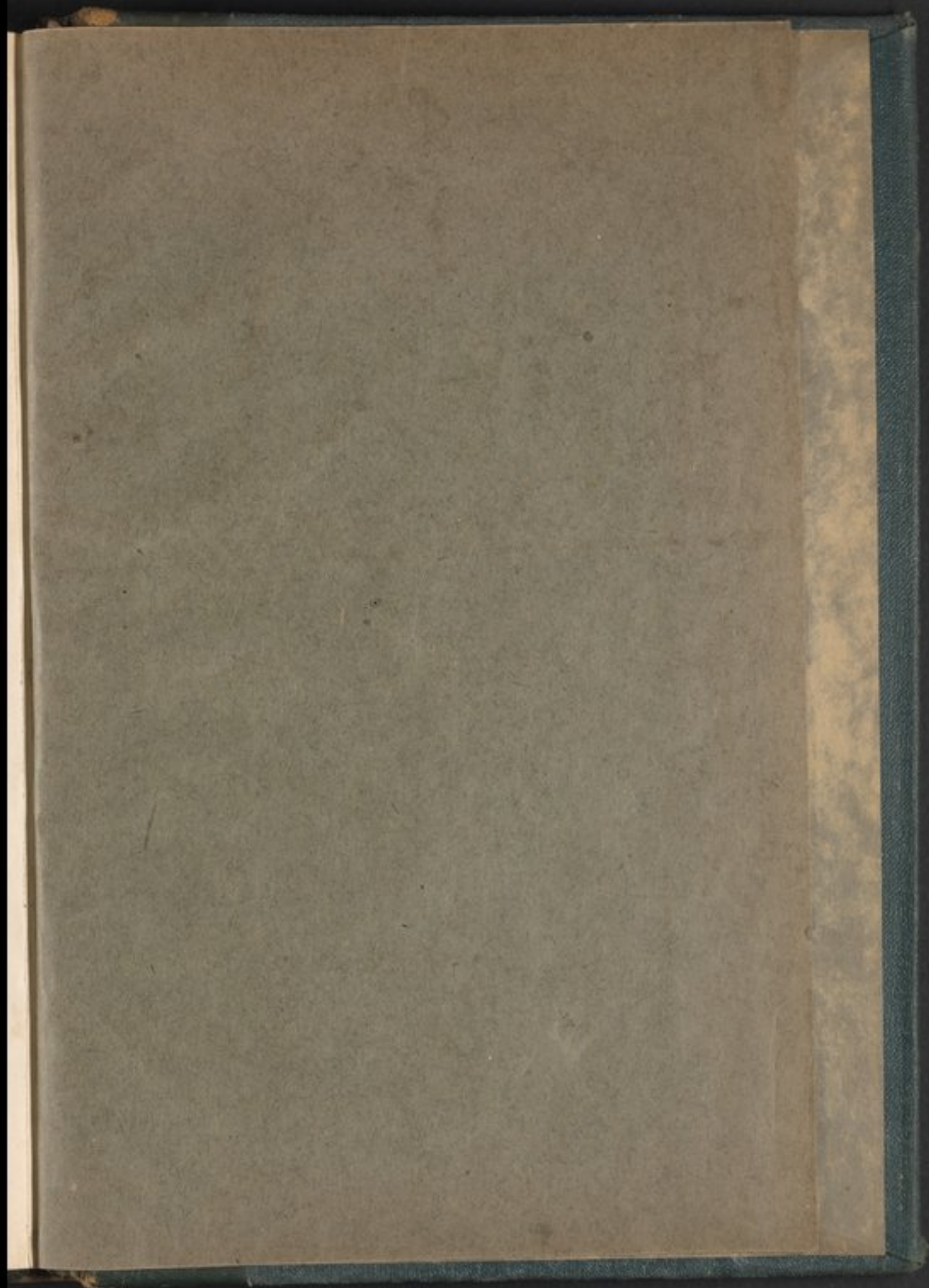


AMERICAN LIBRY. N. CAIRO. LIBRARY

3 8534 00953 8525







al-Khūlī, Amīn.

Silat al-Islām bi-īstāh
al-Masāhīk.

أبو بن الحولي

BP

172

K4x

1939

صَلَاةُ الْمَسْجِدِ

بمبحث قدم وألقيت خلاصته

في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد بمدينة بروكسل

من ١٦ إلى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥

مطبعة الأزهر

١٩٣٩/٢/٣٠٠٠

٤٩١،٦ ٤
٥٧-١ ٤

48095

ألى

العقول القوية ، والقلوب الكبيرة

التي تدرك من التدبير أسمى معانيه وأنبل أغراضه

« أقدم هذا البحث »

أمين الخولى

بسم الله

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

فإن



الؤلف بين أعضاء مؤتمر تلويح الادبائ في رحلته بضواحي بروكسل وتشير اليه علامة (X) .
(١) حفرة صاحب النضية والمالي الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الاوقاف السابق .
(٢) السيد يحيى دولت آبادى مندوب إيران في المؤتمر .

C 91, 74

خ. پ. ص

الفهرست

صفحة

- الأهداء : ٣
- مقدمة : من قلم حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ
محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ٥
- فاتحة : ١٥

الفصل الأول :

الاتصال المادى بين الدينين : —

الفتح الإسلامى فى الغرب — العصابات الإسلامية القوية
فى أوربا — الغرب والشرق فى الحروب الصليبية — الأسرى
من الجانبين — مثال من الأسرى ذوى الأثر : ليون الأفرىقى —
الغربيون فى الجيوش الإسلامية — المسلمون فى الجيوش الأوربية
✓ الدعوة السياسية التى تمس النواحي الدينية — مراكز دينية
إسلامية فى أوربا — تبادل الوفود لأسباب مختلفة من عسكرية
وسياسية —

بقايا المسلمين فى أوربا بعد الاستعمار الإسلامى — أسباب
الاتصال الاجتماعى : الرحلات على اختلاف أغراضها .

٣٢ - ١٧

الفصل الثانى

الاتصال المعنوى بين الدينين :

وصف الحياة الغربية ، عقليا ، ودينيا واجتماعيا ، فى عهد النهضة
الإسلامية —

الاقتباس العالمي لمعارف الشرق — خطوات ذلك الاقتباس —
 ملوك أوروبا وعظماؤها يؤيدون هذه الحركة — اللغة العربية في أوروبا .
 الاتصال الفلسفي بين الغرب والامم الاسلامية — ابن حزم
 في الغرب — صلة البيهنة الألمانية خاصة بالشرق والاسلام .

٥٢ - ٣٣

الفصل الثالث :

من نتائج الاتصال :

- ٥٣ تمهيد
 الآثار العامة لاتصال الغرب بالشرق : —
 ٥٤ الغرض من سلطة الكنيسة ...
 ٥٥ تحرير العقل ...
 ٥٦ المؤثرات الاسلامية في تجديد الكنيسة
 الآثار الخاصة للاتصال :—
 ٦٠ رفض السلطة الكنسية
 ٦٤ الاكتفاء بتصحيح العقيدة ؛ ورفض وساطة الكنيسة بين الله والناس
 الرجوع الى الكتاب المقدس وحده ، ونبذ آراء المجامع ؛ والآباء ؛
 ٦٦ والتقاليد
 ٦٧ الحركة الظاهرية وصلتها بذلك
 ٧١ إعطاء كل مسيحي حق تفسير الكتاب ، وصلة ذلك بالاسلام
 ٧٢ مسألة سر الشكر ، وإنكار استحالة القربان إلى جسد المسيح ودمه
 ٧٤ صلة هذا الإنكار بالتفكير الاسلامي
 ٧٦ أبطال عبادة الصور ورفعها من المعابد وصلة ذلك بالبيهنة الاسلامية
 ٧٨ خاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة (١)

من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

فى سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م دعى الأزهر لحضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل ، فى شهر سبتمبر من تلك السنة ؛ فلبى الدعوة وأوفد حضرتى صاحبى الفضيلة ، الأستاذين مصطفى عبدالرازق ، وأمين الخولى ؛ وقد اختار الأستاذ الخولى موضوعا لبحثه « حادث الإصلاح البروتستانتى فى المسيحية » فكتب فيه هذه الرسالة ، بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الإسلامى والعلوم الإسلامية .

موضوع طريف ، وبكر - فيما أظن - ويبدو كأنه غريب . لكن الأستاذ الخولى بما منح من راحة العقل ، ودقة البحث ، وسعة الاطلاع ، استطاع أن يزيل هذه الغرابة ، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى الموضوع .

وحركة الإصلاح المسيحى حادث من الحوادث البارزة فى تاريخ الأديان ؛ وما من حادث فى هذا الوجود ، إلا وهو أثر لغيره ومؤثر فى غيره ؛ والحوادث العظيمة ترتبط عادة بأسباب كثيرة سابقة ؛ وقد يكون السبق بزمن طويل ؛ ثم من الأسباب ما يكون واضحا ، ومنها ما يكون خفيا حتى لا يدرك إلا بعد العناء ، أو بعد سفر من الخفاطر طويل .

(١) ألفت الناس من هذه المقدمات ما هو التقريظ أو ما يشبهه ، لسكنها اراد الله أن تكون هذه المقدمة مثلا من حرية الفكر ، ونزاهة النظر الدينى فى مناقشة مولانا الأستاذ الاكبر ، لتنتج هذا البحث ، بما تركته بين يدى القارى دون تعليق - المؤلف .

وقد شاء الأستاذ الخولى أن يرى صلة حركة الإصلاح البروتستانتى بأصول
الاسلام ، وعلوم الاسلام ؛ ونظم بحثه على ثلاثة فصول : —

الأول : فى أثبات الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية فى أوروبا .

الثانى : فى اثبات الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية فى أوروبا .

الثالث : فى آثار ذلك الاتصال .



وقد أثبت الاتصال المادى والمعنوى ، بما أرى أن فيه غناء للمنصف .
فالحروب بين الاسلام والمسيحية فى الشرق والغرب ؛ وتبادل الأسرى ؛ والفتح
وإسقاط رواق الحكم والسلطان الاسلامى فى الغرب ؛ وغزوالفرنجة بلاد المسلمين ،
واختلاط الجند فى الشرق والغرب ؛ واستعانة المسلمين بغيرهم فى مرافق الدولة
وأعمال الحكومة ؛ واستعانة غيرهم بهم فى ذلك ؛ والوفود التى تفد من الجانبين
للمصلح وتقرير العلاقات ، أو لرواد البلاد ، والانتفاع بما فيها من منافع وموارد ؛
وتبادل التجارات ، كل ذلك لا يدع مجالاً للشك فى هذا الاتصال المادى وقوته .

ثم مرور حقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها غارقاً فى الأمية والجهالة ؛
وحركة نقل المعارف الاسلامية وترجمتها ؛ وترجمة القرآن الكريم نفسه ؛ وتعلم اللغة
العربية ، واللغة العبرية لأنهما لغتا العلم ، والواسطة لدراسة العلوم الاسلامية
وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة ؛ والتأثر بأعلام العلماء
الاسلاميين ، كابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد . كل ذلك ثابت ، وقد أتى الأستاذ
بالشواهد عليه ، وبالأسانيد التى لا تقبل الجدل ؛ وهو برهان الصلة المعنوية
بين الغرب وبين الاسلام ؛ ومن الحق أن يقول الأستاذ بعد استيفاء هذا
كله (... من كل هذا يتجلى للقارىء التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته
فى أوروبا بعامة ؛ وأنه كان بخاصة فى البيئة الجرمانية — الميدان الأخير
للاصلاح — واضحاً قوياً) .

ومن الواقع أن حادث ظهور الاسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التي انتشر بها في الشرق والغرب ؛ وخلافته على دول عريقة في المدنية والأدب ، قوية السلطان ؛ واقتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم ، والاستيلاء على البلاد التي جاءها ، وحصول ذلك على أيدي رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربى دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفكير في الروح التي وصلت بهؤلاء إلى ذلك المجد الحربى ، والمجد الروحى وإلى ذلك السلطان القاهر ؛ وفي الأسباب التي أثمرت هذه الروح ؛ وفي معرفة ماجاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم ؛ ومعرفة ما تخلقوا به ؛ وما اتخذوه نظاما لهم في حياتهم العامة . والخاصة ؛ أضف إلى ذلك أن المسلمين لم يكتفوا بالقوة المادية ، وقوة الوحي ، بل سعوا إلى المعرفة بتناسونها في كل ناحية من الأرض ، وقام خلفاؤهم على حيطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلسل من البيوت العريقة في المجد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ما اتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة في عهدهم واتصف به غيرهم ممن بعدهم . مما حجب إلى الناس أرضهم وبلادهم ، وحجب اليهم حكمهم والاستقلال برأيهم . وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون إقامة الشواهد والأدلة ؛ فإن هذا طبيعى يدركه كل من راقب سير الوجود ، وسير العلم في هذا الكون .

وقد كانت اليابان أمة لا يأبه لها الغرب ولا يعدها في مصاف الدول المتعدنية ، حتى جاء حادث الحرب بينها وبين الروس سنة ١٩٠٤ ، وكان لها الغلب فتغيرت موازين الأمور ، وتغير قدرها ؛ ونظر إليها الغرب نظره إلى أمة عريقة في المجد ، وعاملها المعاملة التي يستحقها مجدها الحربى والعلمى .

لكن ربط حركة الإصلاح المسيحى خاصة ، بالدين الاسلامى ، والمعارف الاسلامية : من فلسفة وتصوف وما إلى ذلك يتطلب بلا شبهة إقامة الشواهد ونصب الأدلة ؛ وهذا ما حاوله الأستاذ الخولى في رسالته

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى جملة حكيمة قالها الأستاذ في الرسالة وهي : أننا

« حين نفسر هذا الاتصال وذلك التأثر ، لانزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الإصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والآخر ؛ بل نقدر ماهناك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى الناحية العقلية والدينية ، التى قريبا لها وقدمها بين يديها ذلك الاتصال بالشرق الاسلامى ؛ فقصدنا العلمى إنما هو إلقاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين المسيحى والاسلامى ببيان هذا الاتصال وأثره »

فهذه الكلمة الصادرة عن نزاهة فى البحث ، وعن اعتدال فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه الى البحث من نقد ؛ فالاستاذ لا يدعى أن الإصلاح المسيحى ثمرة مباشرة للمعارف الاسلامية ، تفردت تلك المعارف بإيجادها ولولاها لما وجد الإصلاح بل يصرح بأن الإصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة اجتماعية ودينية وغيرها ؛ وغاية الامر أن المعارف الاسلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ منها أمنية المصلحين ، وأنها جذبت الابصار إليها ووجهت العقول نحوها ، وخلقت مزاجا أعانهم على ما اختاروه .

ومثل هذا حاصل الآن عندنا ، فأن اتصالنا الحديث بالغرب اتصالا ماديا ومعنويا ؛ وتقل آثاره العلمية الى لغتنا ؛ ومعرفتنا بلسانه ؛ ثم تفوقه الحربى والعلمى وتفوقه المنبسط على الشرق ؛ كل أولئك قد بعث فى الشرق روحا جديدة تغاير الروح التى كانت سائدة فى القرن الماضى ، بل غير العادات والتقاليد ، ومنسأهج التفكير . ومن المتعلمين من مرق من الدين ، ومنهم من حاول التوفيق بين الدين والعلم الجديد ؛ ومنهم من نهى البحث الجديد الى إعادة النظر فى التراث القديم لاختيار ما هو أصلح منه ، ومنهم من اتجه لتحرير القديم مما زيد فيه وابتدع . وليس من الواجب أن يكون المثال المنتزع من مثال آخر مطابقا له من جميع الوجوه أو من أكثرها ؛ بل قد يأخذ المثال بعض خصائص الأصل فى المعنى والصورة ويوجد مثالا آخر يوافق مزاجه ، ويوافق عقيدته المرروثة ، ويوافق البيئة التى نشأ منها وعاش فيها .

وكما أن معارفنا تأثرت حديثا بمعارف الغرب ، فقد تأثرت من قبل بما أفاد المسلمون عن غيرهم من علم وفلسفة . والناظر في علومنا الاسلامية يلمح هذا التأثير في كل شيء : يلمح في علم أصول الدين ؛ وعلم أصول الفقه ؛ وفي الفقه نفسه ويلمح في التفسير ؛ وكتب شراح الحديث ؛ وفي كتب التصوف وغير ذلك .



نعود بعد هذا إلى الفصل الثالث من فصول الرسالة ؛ وقد قسم الأستاذ الخولى الآثار الناجمة عن الاتصال المادى والمعنوى قسمين :

(أ) آثار عامة .

(ب) آثار خاصة .

وعد من الآثار العامة : الغض من سلطة الكنيسة ؛ وتحرر العقل البشرى . واستدل على الأول بنحمود الخماس الدينى ، أثر انتهاء الحروب الصليبية ، حتى لم يعد كافيا لتحرير القلوب ؛ وحتى انتهى الأمر بتحديد سلطة الكنيسة . ومما لاجدال فيه ، أن هذين الأصلين عريقان فى الاسلام ؛ فهودين لا يعترف لأحد كائنا من كان بسلطة دينية على أحد ؛ إلا ما أعطى للإمام من حق فى المباحات يوجبها أو يحظرها وفقا للمصلحة العامة ؛ وإلا ما أوجبه على العامة من استفتاء العلماء فيما لا علم عندهم به ؛

أما العلماء فلم حق تفسير الكتاب وحق استثمار الأحكام منه ، ومن السنة المطهرة ، وعليهم العمل بما اعتقدوه أو ظنوه حكما لله ؛ لا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره ، وأن يتنازل عما هداه اليه اجتهاده ؛ وكلمة الامام الشافعى فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة « كيف اخذ بقول من لو عاصرت له حججته » . وقد أتمر العقل ثمراته التى حفلت بها الارض فى ظلال القرآن ، وتمت راية السنة المطهرة . وخلف العلماء هذا التراث الخالد الذى نعتر به وتعتز به البشرية قاطبة .

وقد يكون الحد من سلطة الكنيسة ، ونحمود الخماس الدينى أثر الحروب

الصليبية أثار من آثار الخيبة والفشل في هذه الأعمال الطائشة ، التي ذهبت ضحيتها
آلاف من الأرواح البريئة التي دفعت ألى أتون الحرب ؛ لكن هل يذهب
هذا بآثار اتصال الغربيين بالشرق ، وما شهدوا فيه من حياة عملية وعلمية
ودينية ، تخالف كل ما عهدوا ، وما صور لهم عن هذا الشرق وأهله ودينه !!
وقد يقال أن تحرر العقل البشرى أثر من آثار العقل ، نفسه ، فقد خلق
حرا طليقا يغضبه أن يقع في الأسر والحجر ، ولما طال عليه الأمد في قيوده
لم يستطع الصبر ، فحاول تحطيم الأغلال والقيود واستطاع بما ألقته الفلسفة
أمامه من الضوء أن يفوز ببيغته ، وأن يعود ألى طبيعته طليقا حرا . هذا
ممکن وقريب جدا . لكن الذى قرب الفلسفة وقدمها هو الاسلام ؛ فهو بسبيل
أن يكون له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب ، بعد استعباده العنيف ،
وإخلاذه الى الركود .



وعد الأستاذ الخولى من الآثار الخاصة فكرا بعينها من أصول الإصلاح
البروتستانتى منها :

(١) رفض السلطة الكنسية للبابا والمجامع ؛ وهذه السلطة تشمل :

١ — مسألة الاعتراف .

٢ — مسألة الغفران . (وهو قائم على أن الأعمال الصالحة تدخر ليعطى

منها الخاطئون) .

والاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب لاشك فى أن
الاسلام ينكره إذ أساسه أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن
السيئات .

وبيع الغفران كذلك ينكره الاسلام ، ولا يرى أن تزر وازرة وزر أخرى .
بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وقد ساق الأستاذ فى إحدى تعليقاته شواهد
كثيرة مما فاض به القرآن الكريم .

هذه الأصول التي وجدت في الإسلام جاء بها الإصلاح المسيحي ؛ فهل الإسلام هو الذي قدمها للمصلحين كما يقول الأستاذ الخولي ؟ أو من الممكن أن يكون سببها الرجوع إلى المسيحية قبل أن تضيع فيها البدع ، وقبل أن تخلق الكنيسة رسومها التي سيطرت بها على الناس ، وحاطتها بسياج من النقديس ؟ كل هذا ممكن ، ومن المرجح في مسألة بيع الغفران أن الإصلاح فيها كان رجوعا إلى المسيحية ، واتباعا لنص الإنجيل . ولكن ما الذي لفت النظر إلى الرجوع لمصادر المسيحية الصحيحة ، أهو العقل وحده أو هو ما قدمه الإسلام من علم ومعرفة ؟ يستوى الأمر عندي فيه ؛ ومؤرخ الأديان من حقه أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدمه الإسلام .

(ب) الاكتفاء في النجاة بتصحيح العقيدة ، دون حاجة إلى وساطة الكنيسة بين الله والناس :

وقد ربط الأستاذ الخولي هذه القاعدة بفلسفة الغزالي ؛ ووجد في أقلام المؤلفين الأوربيين حلقات ، تكون سلسلة ذلك الاتصال بالغزالي وفلسفته . والفكرة مرتبطة في الوقت نفسه بالقرآن الكريم ذاته ، فهو مليء بتقرير هذا الأصل - « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفي الحديث من قال لا إله إلا الله دخل الجنة .

فهذا أصل من أصول الإسلام عرض العلماء لبيانه ، ومنهم الغزالي في فلسفة النفس ، واعتبارها جوهرًا مجردًا مستعدًا للقبض الألهي .

هذا الأصل وجد في الإصلاح المسيحي ؛ والعقل يرشد إليه . لذلك يصح التساؤل أهو مأخوذ عن الإسلام ؟ أو عن هدى العقل ، وهدى المسيحية الأولى ؟ ومن الممكن أن يستمر الأستاذ الخولي على رأيه في أن الإسلام هو

الذي أطان عليه بما قدمه للعقل من علم ومعرفة ، ومعه مؤرخو الفلسفة الذين يتبعون الصلة من الغزالي الى لوثر نفسه .

(ج) اعتبار كلمة الله هي الضابط الوحيد ؛ وبعبارة أخرى جعل الحكم لله

وحده :

وقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم إلا الله ، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا أنه يدرك حكم الله ، ولا ينشئ حكماً ، فالله وحده صاحب السلطان . واتفقوا على أن ما جاء فيه وحى فرده الى الوحي .

وفي التنزيل الكريم « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

فوجوب اتباع الوحي لا يختلف فيه أحد من العلماء ؛ قديمهم وحديثهم في ذلك سواء . وإنما الخلاف في أمور أقل شأنًا من هذا ، مثل أن القياس حجة لأن النصوص لم تشتمل على حكم جميع الأشياء ؛ أو غير حجة لأن النصوص تشتمل جميع الأشياء . ومثل جواز تأويل ظاهر النصوص وعدم جوازه . وليس الظاهرية وحدهم هم المشددون في اتباع النصوص ، وعدم التأويل ؛ بل لهم أسلاف في ذلك من العلماء فليس مذهبهم جديدًا .

هذا الأصل من أصول الاسلام بلاشبهة ، قد وجد في الاصلاح المسيحي البروتستانتي ، وقبل الاصلاح بزمن مبكر . وإذا نحن أمعنا النظر نستطيع ادعاء أن كل من يعترف بالله ورسله ولم تفسد فطرته ، أو تحجب بأغشية الضلال ، يدرك بدهاهة أن شؤون الآخرة ، وطريق الوصول اليها مما يجب أن تكون الكلمة فيه للوحي ؛ وقد كانت الأديان قبل طروء الفساد عليها على هذا المبدأ . فالرجوع اليه قد يكون رجوعاً الى المسيحية ، أو رجوعاً الى مقتضى العقل . لكننا نرجع فنقول أن الاسلام قدم المعرفة ، وقدم أصوله الحققة للغرب . ووجه العقل والوجدان ، وأزال الأغشية عن البصائر ؛ فمن المحتمل جداً أن يكون له فضل هذا الاصلاح .

(د) لمن يكون حق تفسير الكتاب ؟ وتتصل هذه المسألة بحركة التوفيق بين الدين والفلسفة .

قد يكون الخلاف في التفسير ومن له الحق فيه مما وجد عند المسلمين في زمن مبكر ؛ فكان هناك من يحاول منع التفسير بالرأي ، وإن كانت الغلبة لمن يجيزه للعلماء القادرين عليه كافة .

وقد أقام رجال الكنيسة أنفسهم في عهد السيطرة مقام المعصوم ، فأجازوه لأنفسهم دون غيرهم ؛ وجاء رجال الإصلاح البروتستانتي فأجازوه لكل مسيحي .

ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة وجدت في الاسلام منذ وجدت الفلسفة عند المسلمين ؛ وإنكار ذلك أيضا وجد عندهم قديما وحديثا ؛ فالمسلم الفيلسوف ، يرى من الحق عليه أن يحاول التوفيق بين علمه ودينه ؛ لأنه يرى صحة الأمرين . وغير الفيلسوف يرى الحق لدينه فقط ، فينكر ما عداه . والفيلسوف غير المتدين يعد نفسه حرا طليقا لا يبالي ما يخالف الفلسفة ؛ وهذا أمر طبيعي وجد عند المسيحيين أيضا

وقد أراد الأستاذ الخولي أن يربط ماتم في الإصلاح البروتستانتي بما هو حاصل في الاسلام لما عرف من صلة رجال هذا الإصلاح بالفلسفة المعروفة إذ ذلك ، والصلة القوية لها تيك الفلسفة بالتفكير الاسلامي . وأنا أرى هذا شيئا قد يكون طبيعيا ، إذ لقي المسيحيون من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفي وحده للثورة عليهم ؛ وتحرر العقل البشري من هذه القيود .

(هـ) إمكان تحول الخبز والخمر في العشاء الرباني إلى جسد المسيح ودمه :

ولعل الإنكار في هذه المسألة لا يحتاج إلى شيء أكثر من لفت النظر ، إلا أن العقول إذا خدعتها الخوادم اطمانت إلى ما لا يحتاج إبطاله لسكبير عناء . والأستاذ الخولي قد نظر في تاريخ المسألة ، ووجد أن فكرة الإصلاحيين في هذا التحول مأخوذة من فكرة فلسفية سابقة وفقت بين العقل الذي لا يطمئن

الى هذه الاستحالة ولا يسلم بها في سهولة ، وبين الدين الذي يقرر هذه الاستحالة ، فاتته الى وجود المسيح بجانب الخبز والنبيد ، دون استحالتهم حقيقة . ورأى أن الفلاسفة من أصحاب هذه الفكرة ربما تأثروا بالحل الاسلامي الذي انتهى اليه الموفقون بين الدين والفلسفة في مسألة الأسباب والمسببات ، فقررُوا أن المسببات توجد عند أسبابها ولا توجد بها .

ولعل الشبه بين المسألتين مما فيه محل للنظر ، فأني لا أشعر بقوة شعور الأستاذ الخولي بها .

(و) الثورة على الأصنام والصور وتحطيمها :

وربط هذه المسألة بقواعد الاسلام ، وملاحظة تأثيره فيها مما يظن أن اليه .



والآن وقد فرغت من تلخيص القسم الثالث من الرسالة ، لا يجوز لي أن أختم القول دون إظهار إعجابي بسعة اطلاع الأستاذ الخولي ؛ وقوة صبره على الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه .

والأستاذ الخولي رجل يحب الجدل ؛ ولا يقتنع إلا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذي حجب ألى منازعته في الرأي .

وإن ما قاله في بحثه من أنه لا يدعى أن صلاة الغرب بالشرق هي السبب الوحيد في الاصلاح المسيحي لكفيل بأن يرد عنه النقد أو يخفف وقعه وإذا علمنا أن الموضوع لم يحاول من قبل تملكنا الاعجاب بعمله .

وهذه الدراسة التي حاولها الأستاذ في هذه المسألة ، خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين في دراسة الأديان ، دراسة مقارنة . فهي تعين على أداء رسالة الاسلام وتوسع أفق العالم المتدين ؛ وتزيده بصيرة في دينه ؛ وتقديرا لعلماء السلف من المسلمين . والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد مصطفى المرافعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَاتحة

١ - البحث العلمى التزيه ، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال ، خطوة صالحة ، فى سبيل السلام العالمى ، والأخوة الانسانية ؛ التى سمت إليها الروح الدينية العالية ، وحلمت بها الفلسفة منذ شروق شمس الحياة الفكرية ؛ ثم لاتزال تتطلع إليها العناصر الكريمة فى الحياة العاملة .

هو بحث يوسع أفق المتدينين ، ويدفعهم من التسدين ألى أظهر معانيه ، على حين هو فى الوقت نفسه ، واجب علمى لخدمة الحقيقة ، يتولاه الباحثون فى تاريخ الأديان ، ومقارنتها .

٢ - والاتصال بين المسيحية والإسلام فى الشرق كان موضوع دراسات كثيرة (١) ؛ ولم يكن الاتصال - غير القصير - بينهما فى الغرب موضوعا لمثل تلك الدراسات .

والإصلاح البروتستانتى أكبر حادث متأخر فى حياة المسيحية بعامة ، وأكبر حادث فى حياتها الأوربية بخاصة . ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه ؛ ولهذا اخترته موضوعا للدراسة ، قصدت فيه ألى رسم الخطوط الأساسية ، والصورة الإجمالية لهذا الاتصال ، وذلك

(١) من مظاهر ذلك : ما فى دراسات العقائد ، ومجادلات أهل الدينين ؛ ومنه ما فى البدع والزيادات التى تأثر بها كل قوم من مخالطهم ؛ ومنه ما فى دراسة الحياة الاجتماعية للأقطار التى جاور فيها المسلمون النصارى ، وما تأثر به هؤلاء ، وأولئك ؛ وفى كل هذه أبحاث متفرقة يمكن تتبعها .

التفاعل (١) بين الدينين الكبيرين ، تمهيدا لدرس أعمق من ذلك ، يتلوه إن شاء الله ؛ في رعاية دائمة لحقوق البحث التاريخي التزيه ، المتصدى لطلب الحقيقة البريئة الرزينة .

٣ — وإنما أقصد الاسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه ، ثم أعمال ومظاهر دينية في حياتهم ؛ وكذلك من حيث هو فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين ، وفلاسفة المسلمين ؛ فشكل ناحية من هذه النواحي آثارها . وأقصد بالإصلاح المسيحي ، تلك الأعمال المادية والعقلية ، التي بذلت في سبيل تغيير نظام الكنيسة الرومانية ، خلال قرون طويلة ، وأجيال متعددة ، حتى جاء « مارتن لوثر » ذلك الرجل الشجاع الذي صير الإصلاح حقيقة واقعة ، وعملا مقررا . فهذا هو الوضع التاريخي الصحيح لحركة الإصلاح .

- ٤ — ومنهجى في ذلك الدرس طبيعي ؛ مرتب على أن أبحث : —
(١) عن الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية في أوروبا . ثم :
(٢) عن الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية في أوروبا . ثم :
(٣) عن آثار ذلك الاتصال في أفكار الإصلاح المسيحي ، وآراء دعائه ؛ خلال تلك الأزمنة الطويلة

(١) عبرت بالتفاعل وفي النفس إن شاء الله أن أعمد ألى دراسة ما تأثرت به الحياة الاسلامية الدينية في الغرب ، وافترقت به عن نظيرتها في الشرق .

الفصل الاول

الاتصال المادى بين الدينين

١ — أظهر مظاهر هذا الاتصال بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين أخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ؛ المواجهة التي سمي فيها الشرق حيناً إلى الغرب ، والغرب آنأناً إلى الشرق .

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الاسلام يواجه المسيحية على شواطئ البحر الأبيض المختلفة ، فما زال حتى رده بحيرة إسلامية أو تكاد ؛ فاحتكم في شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، وألقى جرائه غرباً بالأندلس ، واستقر في تلك المواطن أزمنة تختلف طولاً وقصراً . توطن في أسبانيا وجنوب فرنسا ، وإيطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية في المشرق ، وامتد في فترات متقطعة إلى غير ذلك من الغرب ؛ ففتح المسلمون نابل (نابولى) وخنوة (جنوة) (١) ، وتغلبوا على رومية في القرن التاسع ، حتى استنقذها البابا (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكي فرنسا وألمانيا . هذا إلى غارات لهم على مختلف المدن في أنحاء إيطاليا (٢) . كما امتلكوا بعض شواطئ نهر ريدونه (الرون) ، ووصلوا إلى لودون (ليون) (٣) ، وامتلكوا صخرة أبنيون ، (أفينيون) (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٩ (ط . مصر) .

(٢) سيديو Sedeillat : خلاصة تاريخ العرب ؛ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) رينو M. Renaud : كتاب غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا إلى سافواى ، وبيمونت وسويسرة في القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى ؛ حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين . وهو أحد الكتائب اللذين ترجمهما إلى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط : ص ٧٨ عربية .

(٤) رينو : المصدر السابق ص ١٠٤

وأقاموا بها بضع سنوات ، وتملك الصخرة هي التي كانت فيما بعد مقر البابوية بضع عشرات من السنين في القرن الرابع عشر . وكانت منطقة « الألبيجوا » التي تنسب إليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان غاراتهم (١) ؛ وتوطنوا إقليم (سبتمانية) مما يلي جبال البرتات من جنوبي فرنسا ، وإذا ما خرجوا منه لم يلبثوا أن يعودوا إليه (٢) . وكذلك ظلوا في بعض جهات جنوبي فرنسا من أواسط القرن الثامن الميلادي إلى القرن العاشر على رأى بعض المؤرخين (٣) .

٢ — واتصلت بذلك الفتح المنظم حركات عصابات إسلامية قوية استوطنت فراكسنت ، على حدود فرنسا وإيطاليا ، ولبثت في تلك المنطقة وما حوالها حتى القرن العاشر الميلادي ، واحتلت مضائق الألب بحيث وقعت طرق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا في قبضتهم (٤) ؛ بل عاهدوا على الإذن بالمرور منها معاهدات منظمة ؛ وهكذا أقاموا في سافواي ، وجالوا في جميع أنحاء سويسرا بلا معارض (٥) ، وانتهى بهم الأمر إلى استيطان هذه المناطق من أوروبا والاستقرار فيها ، فزرعوا وعمرها ، وتزوجوا ونسلوا (٦) .



ثم جاء دور الغرب في أعقاب ذلك توجاً ، فرمت أوروبا الشرق بأفلاذ كبادها

-
- (١) رينو : المصدر السابق ص ٧٣ .
(٢) سيديو : ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٣) رينو : المصدر نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ — ١١٤ .
(٤) رينو : المصدر نفسه ص ١٦٧ ؛ سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .
(٥) رينو : المصدر نفسه ص ١٧٦ ؛ سيديو : المصدر نفسه ص ١٦٢ .
(٦) فرديناند كـلـر Ferdinand Keller : كتاب غارات العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر ، وهو الكتاب الثاني من السكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب تحت عنوان « غزوات العرب في فرنسا ... » : ص ٢٥٨ ؛ وسيديو : الخلاصة ص ١٦٢ .

في الحروب الصليبية التي دامت قرونا ؛ وأسس الصليبيون على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض ، إمارات أوربية مسيحية ؛ واستولوا أحيانا على بيت المقدس ، واتصلوا في ذلك كله بقلب الشرق ، من مصر وسوريا ، وأطراف العراق وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق في دياره ؛ بعد ما قدم الشرق نفسه إلى الغرب في داره .

ويتلو هذا الدور اتصال الصراع بين الاسلام والمسيحية على حكم أسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، عهد الاصلاح المسيحي الذي نتج عنه . هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق ، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة للاتصال بين الدينين . وها نحن أولاء نشير إلى بعض ذلك :



٤ — في هذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الأسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيانا إلى أن يُفدوا ، ويعودوا إلى بلادهم السنة تعريف بما رأوا وسمعوا ؛ بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التي خالطوها . ولقد عرفت أوروبا من هؤلاء الأسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذي دعوه « ليون الأفريقي » وما هو إلا أبو علي الحسن بن محمد الوزان الغرناطي الفاسي ، الذي أسره القراصنة ، في عودته من لدن السلطان سليم العثماني ؛ وقد كان سفير لديه عن ملك فاس مهنتا له بالتغلب على المماليك في مصر والشام وفلسطين وبلاد العرب ؛ وأهداه القراصنة إلى البابا ليون العاشر ، فحبسه في قلعة القديس أنجلو ، برومية ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية على يد ثلاثة أساقفة ، وعمد بعد ذلك في كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذي أعطاه اسمه « حنا ليون » . ومن هنا عرف باسم ليون الأفريقي ؛ وظل بإيطاليا عهدا عاد بعده إلى أفريقية وعاد إلى إسلامه ؛ وهناك كتب الوزان كتبا كثيرة قيمة ، نذكر من بينها

مما يعنيننا : كتابه عن « القانون والعقيدة الاسلامية (١) » . وكان أسر
الوزان وحياته في أوروبا إبان ثورة الإصلاح بين سنة ١٥١٦ - ١٥٢٩ م .
على أتى إنما ذكرته مثالا لحسب ، لبيان ما قد يكون من التأثير والتأثير الديني
بالأسرى ، والنازليين من أهل الدينين في الشرق والغرب ، لا لانا ندعى له بنفسه
أثرا خاصا في حياة الإصلاح المسيحي .



٥ — وما إن يتبادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداة اتصال مباشر
بين المسيحية بأهلها في الغرب ، والإسلام بأهله في تلك المناطق ، إذ نشهد
صفوفا من المسيحيين الأوربيين يقاتلون تحت اللواء الاسلامي : إما عن طريق
جعل الأسارى المسيحيين وسببهم جنودا ، وإما عن طريق تقديمهم الى تلك
الخدمة عن طيب خاطر (٢) ، في جيوش المسلمين بالاندلس ، بل جيوشهم
في بلاد المغرب أيضا ، إذ يحدثنا ابن خلدون في المقدمة (٣) أنه « نظرا لضرب
المصاف وراء العساكر ، وتأكده في قتال الكر والفر ، صار ملوك المغرب
يتخذون طائفة من الأفرنج في جنسهم ، واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل
وطنهم كله بالكر والفر » .

وكانت جيوش ملوك الأفرنج أيضا قد تنظم جندا من المسلمين : إما عن
طريق تلك الغلبة ، كالذي يروى من اتخاذ « رجار » ملك صقلية لجملة من العبيد
المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له منهم

(١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة ليون Leone . وقد كتب
الاستاذ أبو عبد الله محمد المهدي ابن الشيخ الحجوى القاسمى بحثنا عن الوزان قدمه
لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٣٣ كما أفردت حياته بالمؤلفات في الايطالية .

(٢) رينو : المصدر نفسه ص ٢١٢ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٨ (ط . مصر . عبد الرحمن محمد) .

جملة كبيرة ، هم أهل دولته (١) . وإما على سبيل الاستعانة بهم كما يروى أن
فردريك الثاني هو هنشتاوفن إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الآتى ذكره ؛
قد اتخذ في جيشه الجند المسلمين (٢) ؛ فكانت صفوف الجند في الغرب مجالا
لالتقاء أهل الدينين ومخالطتهما ، سواء في ذلك الجيوش الإسلامية ، والجيوش
المسيحية .



٦ — ونلمح في تاريخ القتال بين أهل الدينين ، ضربا من الدعاية السياسية
التي تمس النواحي الدينية ، إذ يروى لنا تبادل المتقاتلين نشرات للدعاية
الموهنة للقوة المعنوية ، وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ؛ ففي حروب

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٨ ط . مصر —

وتقرأ في تراث الاسلام : ج ١ ص ٨ من الترجمة العربية مانصه : « ونرى
عددا من حكام قشتالة يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ، ويستخدمون مهندسين
مسلمين ، ويستمعون الى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بخير ما في الثقافة
الإسلامية » . وفي ص ٢٣٢ منه مانصه : « على أن المغيرين النورمانديين
والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية برعايتهم وأخذوا بالعادات الإسلامية
أخذًا شاملا » ؛ كما تقرأ فيه أيضا ج ١ ص ٥٤ : « إن ألفونس السادس كان
بلاطه مسيحيا اسما ، وإنه أعلن نفسه إمبراطور العقيدتين » .

(٢) روى ذلك الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على ترجمة كتابي : رينو
وكلر ؛ وكرره في ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ . وقال الأستاذ إيرنست
باركر في كتاب تراث الاسلام ص ١٣٥ ج ١ من الترجمة العربية الحديثة « إن
فردريك الثاني استخدم جيشا عربيا ضد البابا . وفي ج ٢ من تراث الاسلام
ص ٣٣ تعليقا ٢ نقلا عن مدام ديفونشير ذكر قلعة « لوسيرا التي اتخذ
فيها فردريك الثاني مسلحة من الجنود العرب » .

نقفور فوقاس الثانى (١) أمبراطور بيزنطة ، مع المسلمين — فى القرن الرابع الهجرى — أرسل الروم الى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (٢) ، يفخر فيها نقفور بماضى انتصاراته ، ويعلم عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الاسلامية إذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، الى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين .

وقد تولى الرد الاسلامى على هذه القصيدة ، الفقيه الشافعى العظيم محمد بن على بن اسماعيل القفال الكبير الشافى ، إذ كان بين جنود الجيش الاسلامى ، فنظم قصيدة فى (٧٤) بيتا ، فيها الى جانب السياسة أمور دينية عن خطأ المسيحيين فى اعتقادهم ، واضطراب أناجيلهم ، وما الى هذا . (٣)

(١) من الطريف ، ونحن بصدد الحديث عن الاتصال الدينى بين المسيحية والاسلام أن نذكر الرواية الاسلامية عن أصل هذا الامبراطور البيزنطى ، فقد جاء فى الكامل لابن الأثير . ج ٨ ص ٢٠٠ ط مصر . ما نصه : « ولم يكن — اى نقفور — هذا نصرانى الأصل ، وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن القفاس ، تنصر وكان ابنه هذا شهما شجاعا حسن التدبير لما يتولاه ، فلما عظم أمره ، وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله ، وملك الروم بعده ؛ وجعل نقفور همته قصد بلاد الاسلام والاستيلاء عليها » اه بلفظه . ولست أقف هنا لتحقيق هذا ، وإنما أكتفى بما فيه من إشارة الى المصادر المختلفة للاتصال بين الدينين ؛ والتمهيد القوى للتبادل الفكرى ؛

وقد حكم نقفور هذا من سنة ٩٦٣ م — سنة ٩٦٩ م .

(٢) منها نسخة خطية فى جزء صغير بمكتبة فينا ، تزيد أبياتا عما أورده صاحب طبقات الشافعية ؛ ومعها رد الشيخ القفال كما ساقه صاحب الطبقات .

(٣) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها . ط مصر — وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هذه القصيدة النقفورية بقصيدة أخرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكي أيضا بعد ما قال « وكانه — ابن حزم — لم يبلغه جواب القفال » . وسنشير الى هذا الرد فيما يلى فقرة (٧) .

فمثل هذه الدعايات التي يقصد بها الفت في عضد الجيوش ، مما يقع بين المنقائلين ؛ وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعري أو غيره بين المسيحيين والمسلمين في الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ؛ إذ كانت الاعتبارات الدينية هي التي تسيطر على الحياة ، وتسود العواطف في تلك الأعصر .



٧ — ونلاحظ أن تلك الحروب كانت تخلق ما نستطيع أن نسميه باصطلاح هذا العصر « نقطا دينية » في الأنحاء المسيحية كالنقط العسكرية للدول القوية ؛ إذ نجد الأخبار عن مسجد إسلامي بالقسطنطينية يظهر أن المسلمين قد أنشئوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام ترددتم لغزوها في القرن الأول الهجري ؛ إذ يذكر ابن حزم في رده على قصيدة تقفور السابقة مسجدا قديما انشأه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

ومسلمة قد دامها بعد ذاكم بجيش هام كالليوث الضراغم
وأخدمكم بالنذل مسجدنا الذي بني فيكموا في عصرنا المتقادم (١)
وغزو مسلمة بن عبد الملك هذا كان في أواخر القرن الأول الهجري
(٥٩٨ - ٧١٦ م) .

فلعل هذا المسجد ظل قائما بالقسطنطينية حتى كانت عمارته والعناية به ، مما يدخل في تنظيم العلاقة بين المسلمين والروم الشرقيين إذ نقرأ أنه في سنة ١٠٤٨ هـ ٤٤٠ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبيك ، وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة ، والخطبة لطغرلبيك (٢) .

وفي سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م . وافى كتاب ملك الروم بالقسطنطينية يخبر

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٨٥ ط . مصر .

(٢) تقي الدين المقرئزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٢

ط . مصر سنة ١٩٣٤ .

بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنون والقراء ، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (١) .
ويبدو أن هذه النقطة الاسلامية لم تكن مسجداً لحسب ، بل كانت جالية إسلامية تنزل القسطنطينية قبل فتحها العثماني ببضعة قرون ، إذ تجد أنه في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م ورد كتاب ملك الروم يتضمن أن كلمة الروم قد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسلمين ، وأمرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، وأنه عمر جانباً منه ، كان انهدم ، من ماله ؛ فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها (٢) .

هذا هو مادعوته النقطة الدينية في بلاد مسيحية ؛ وما رأينا أن تأمينه يدخل في حساب العلاقات السياسية ؛ ومن المحتمل أن تكون قد وجدت تقط أخرى ، ومعافل دينية من هذا القبيل في غير القسطنطينية . وكان لها نصيبها في وصل ما بين الإسلام والمسيحية في الغرب وتعريف أحدهما بصاحبه .



٨ — وتلك الصلات الحربية والسياسية تحوج الى تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفي هذه الوفود نرى نزوعاً خاصاً من المسلمين والمسيحيين ، الى اختيار رجال دينيين ، يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية ، التي كانت تجري عند التقابل ، حتى في الحفل الرسمي الذي يقام لاستقبال السفير الوافد ؛ وشاهد هذا من الجانب الاسلامي ، ما نراه في اختيار مثل القاضي أبي بكر محمد بن الطيب

(١) المصدر السابق : ج ١ ص ١٠٤ ط . مصر .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ١٢٩ ط . مصر .

الباقلاني (٤٠٣ هـ) لاسفارة بين المسلمين والروم الشرقيين (١) . وفي الغرب

(١) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧١ هـ . أنه : فيها أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني إلى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه .

وإلى القارىء بعض ما وصلنا من مناقشات القاضي لرجال المسيحية من الروم : دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به ، كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة ، أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ؛ أما علمت أنا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد !! . فقال القاضي أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ؛ وتنزهونهم فكان هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى .

وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ . فقال له القاضي أبو بكر : هما اثنتان ، قيل فيهما ما قيل ، زوج نبينا ، ومريم بنت عمران ؛ فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحملته على كتفها . وكل قد برأها الله مما رميت به .

وكان القاضي الباقلاني مبعوثا سياسيا ، سريع الخاطر لبقا ؛ وروا أنه في هذه الرسالة عرف الامبراطور خبره ، ومحلله من العلم وموضعه ، فاعتقد أن القاضي لن يكفر له إذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ؛ فاحتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال في حجرة ، لها باب لطيف ، لا يمكن أحدا أن يدخل منه إلا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ، ليدخل القاضي راكعا ، فيكون ذلك عوضا من تكفيره . فلما ذهب القاضي سار حتى وصل إلى المسكن ؛ فلما رآه فطن إلى القصة ، فأدار ظهره ، وحتى رأسه راكعا ودخل من الباب ، وهو يمشي إلى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهره ، حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه ؛ وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا . رحمه الله .

ابن عساكر : تبين كذب المفترى ٢١٨ — ٢١٩ ط دمشق .

رى « أوتون » ملك جرمانيا في القرن العاشر ، يعنى بان يختار عالما لاهوتيا يعتمد عليه في المناقشة الدينية مع المسلمين ليبعثه الى قرطبة ، فيختار راهبا من رهبان دير جورز (Gors) بقرب ميتر ، اسمه « جان » عرف بضلوعته في اللاهوت ؛ وقد حاول في تلك البعثة أن يقنع الخليفة « الناصر » الأندلسى باعتناق المسيحية . كما تشير الى ذلك الرواية الأوربية (١) .



٩ - ومن آثار ذلك الاتصال المادى أن الاستعمار الاسلامى إذا ما انحسر عن الأقطار الغربية ، ترك فلولا بل جموعا تطويها اللجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية ، فتدخاها في المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح ، وطرق تعريف بالاسلام ؛ وهكذا كان الأمر عند ما استردت جزر البحر الأبيض من الاسلام ، كقبرص ، وأقريطش ، ورودى ، وصقلية ، وغيرها من مناطق الاستعمار الإسلامية في أوربا ، فتنصر أهلها وبقوا مسلمين مغلوبين . عبيدا أو كالعبيد . وها هو ذا الرحالة الإسلامى الكبير أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير ، يحدثنا عن قصة لأحد فقهاء حاضرة جزيرة صقلية بعد استيلاء النور منديين عليها ، في معرض سوء حالهم الدينية إذذاك ، فيقول : « . . . فنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هي حاضرة ملككم الطاغية ؛ ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام ، والانغماس في دين النصرانية ، ومهر في حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية ؛ وربما طرأ حكم إسلامى فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحككين » (٢) .

وستسمع فيما بعد - الفصل الثانى فقرة ٨ - أن راهبا كان مسلما ثم تنصر ،

(١) رينو : المصدر السابق - ص ١٧٧ من الترجمة العربية .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ط . بمصر .

قد ساعد في ترجمة القرآن إلى اليونانية (١) ؛ وأن رئيس حصن مستعمرة
فرا كسينت الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها قد تنصر حين هزم ، وتنصر
معه آخرون ، كما بقي بعض من معه مسلمين أرقاء في تلك المنطقة (٢) .

وقد كان من آثار ذلك أن وجدنا أقليات إسلامية في أنحاء مختلفة من
أوربا ، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة ؛ ففي فرنسا كان من المسلمين ،
في القرن الثالث عشر الميلادي ، عدد يهتم به مجمع الأساقفة في « طر كونة »
بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م . فيصدر أمرا بأجبارهم على اتخاذ زي خاص بهم (٣) ؛ كما
كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من عذاب الاضطهاد إلى المسيحية ،
يعتقونها ، فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر إرهابهم
بعد اعتناقها بأشد ما يمكن ، حتى أصدر البابا كليمنطوس الرابع سنة ١٢٦٦ م
منشورا عنف به رئيس دير لتعذيبه رجلا مسلما غنيا كان قد تنصر ، فزعم هذا
الرئيس أن تنصره غير حقيقي ، توصلا بذلك إلى ضبط أملاكه وحرمان أولاده
منها (٤) .

ويتحدث حتى اليوم عن أسر في جنوب فرنسا لا تزال تحمل اسم
« سارازان » ومن بين رجالها من له شأن علمي (٥) ، وما ذلك إلا أثر لما

(١) الدرّة النفيسة في شرح حال الكنيسة ؛ المترجم عن اليونانية من مختصر
تاريخ استفانوس قوميطة ؛ المقتطف من تاريخ ملاتيسوس مطران أثينا الكنايسي :
ط . أورشليم سنة ١٨٦٧ م .

(٢) رينو : المصدر نفسه - ص ١٨٨ - ١٨٩ من الترجمة العربية .

(٣) (٤٣) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ - ٢٢٨ من الترجمة العربية .

(٥) تعليق للأمر شكيب أرسلان على ترجمته لكتاب رينو ص ٢٢٨ ،
يذكر فيه وجود تلك الأسر في فرنسا وفي سويسرا أيضا ؛ ويسمى منها العالم
الفيلسوف أبو زيد (Abauzit) المعاصر لقولنير وروسو ، ونيوتن ، وصديقهم
جميعا .

كان من تنصر عدد كبير من المسلمين في فرنسا ؛ كما كان عدد الفرنسبين الذين اتخذوا الاسلام ديناً أكبر ممن تنصر (١) .

ويتصل بهذا ما يحدثنا به ياقوت في معجم البلدان عن وجود مسلمين في بلاد «هنجاريا» - المجر - التي يدعوها «الهنكر» (٢) في القرن الثالث عشر الميلادي .

(١) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من نص المؤلف .

(٢) في مادة باشغرد - ج ٢ معجم البلدان لياقوت يقول : « ... وأما أنا فأني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استمقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية ، في مملكة أمة من الأفرنج يقال لهم «الهنكر» ونحن مسلمون رعية لملكهم ؛ في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تسكاد أن تكون بليدة ؛ إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورا خوفاً من أن نعصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعنى رومية ؛ والبابا رئيس الأفرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ؛ ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم . قال : وفي غربنا الأندلس وفي شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ؛ قال : ولساننا لسان الأفرنج ، وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ، ونغزوا معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الاسلام ؛ فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم ألى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار - قلت وهو يذكر في صدر المادة خبر بعثة الخليفة المقتدر بالله الى ملك الصقالبة الذي كان قد أسلم هو وأهل بلاده ليقيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاسلامية - وسكنوا بيننا وتلفظوا في تعريفنا « الخ ما يذكره من زيهم وعاداتهم وبعد بلادهم ص ٣٧ ج ٢ ط . مصر .

هذا والاسلام اليوم في المجر قليل مستضعف ، لا يسكاد يوجد إلا بين نفر من منخاني الألبانيين ونحوهم في تلك البلاد .



١٠ — تلك مظاهر اتصال مادية ترجع إلى الحرب بين الشرق والغرب ، وما يتصل بها من وفادة وما إليها .

ونمت أعمال سلمية لها أهميتها في مثل تلك الصلات بين الدينين ؛ فرجال الحكم أنفسهم حين لا يحاربون ، تدفعهم مطالب السياسة إلى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة ؛ ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الديني ، وبهية التنفاسم القريب ، كالمصاهرة ؛ فنرى في الشرق الإمبراطور — كائنا كوزينو — الذي سنعرف أنه تهرب وترجم القرآن — يصهر إلى السلطان العثماني أورخان ، ويحمل إليه ابنته « تيودورة » التي تقيم على دينها في قصره (١) .

وزى في الغرب تقرا من أولى الأمر في الأندلس يتزوجون أميرات غريبات ؛ فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة الملك لندريق (٢) ؛

(١) روبرتسون وليم (R . William) مقدمة تاريخ شارل كان — الترجمة العربية ص ٣٧٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٨ ط مصر . ويقال أن عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين . وفي هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير ؛ فقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه ؛ كما كان يفعل زوجها رذريق . فقال لها أن ذلك ليس في ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصره لمجلسه الذي كان يجلس فيه ، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصير كالراكع فرضيت به ، وصار كالسجود عندها . فقالت له الآن لحقت بالملك ، وبقي أن أحمل لك تاجا مما عندي من الذهب واللؤلؤ ، فأبى فلم تزل به حتى فعل ؛ فأنكشف ذلك للمسلمين ، فقبل تنصر ، وفطنوا للباب ، فثاروا عليه فقتلوه .

كما تزوج زياد بن النابغة التميمي إحدى بنات ملوك الأندلس (١) ؛ وتزوج
عثمان بن أبي نسعة ابنة دوق أكيثانه (٢) وغيرهم . بل إن العناد السياسي
قد دفع ببعض أمراء المسلمين الشاغبين الى أن يصهر ألى بعض ملوك الفرنجة ،
ويؤلف اليه ابنته ، كما فعل موسى بن زياد والى مرقسطة ، أيام محمد بن
عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٢٣٨ — ٢٧٣) إذ عزله الأمير فعصى
عليه ؛ وكان أن زوج ابنته من أمير نقارة المسمى غرسية (٣)

فكان في هذه الصلات وأشباهاها مما كثر ولا بد في عمل الأفراد ؛
ما يعرف كل دين بصاحبه في الغرب تعريفا قويا .



١١ — وإذا سعى رجال السياسية بعضهم إلى بعض ، فقد سعى مثل هذا
السعى رجال الدين أيضا في سلم أو ما يشبهه حيناً ، وفي حرب أو ما يشبهه حيناً
بغية نشر الدين ، وكسب الأتباع ؛ وعندنا من مثل هذا الاتصال بين رجال
الدين في الشرق ، وتناقشهما الديني مالا نحب أن نعرض لتفصيله ؛ وإن كنا
لا ننسى أن لهذا الاتصال الشرقى ، أثره في الغرب ، إذ ظلت الكنيسة الشرقية
والغربية متحدتين إلى القرن العاشر الميلادي ، كما لم ينقطع التعاون بينهما بعد
الانفصال على رد الهجمات الاسلامية الاعتقادية وغير الاعتقادية .

وفي الغرب نفسه نجد ذلك السعى إلى التبشير بين المسلمين ؛ فسان فرنسكو
رأس الرهبنة الفرنسيسكانية - ق ١٣ م - برحل إلى الشرق من أجل ذلك الغرض ،
ويتقدم إلى معسكر الملك الكامل الأيوبي بدمياط سنة ١٢١٦ م ليدعوه إلى

(١) أخبار مجموعة ط مدريد ص ٢٠

(٢) محمد دياب بك : تاريخ العرب في اسبانيا ص ٣٩ ، ١٧٦ نقلا عن

مصادر غربية .

اعتناق المسيحية (١) . و « ريموند لول » اضطرم في نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية في حياته (٢) . و « بابا » رومية أنفسهم يشاركون في هذه الدعوة بالمكاتبة ، فيرسل البابا بيو الثاني (Pio 2) الى السلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية في يده رسالة يدعو فيها إلى اعتناق المسيحية ؛ ويناقش فيها تفاصيل في الدينين ، الاسلام والمسيحية (٣) .

فهذه أمثلة تصور لنا الرغبة القوية في الدعاية للمسيحية ؛ تلك الدعاية التي تقوم بلا شك على معرفة غير قليلة بالاسلام يحتاج إليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة .



١٢ — ووراء هذا الاتصال حربيه وسلميه ، تلك الحياة المدنية العادية ، التي لن تخضعها للعزلة المواضع المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادثتها ؛ بل تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ؛ وعلى هذا الأساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهم الاقتصادية قلب أوروبا ، وأقصى شمالها وغربها ، مما كانت تطول مدته سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطئها .

ونقرأ طرفاً من وصف تلك الاسفار في كتب الجغرافيا العربية ، وكتب

(١) الكونت هنري دي كاسترو : الاسلام . خواطر وسوانح ص ١٨٦
١٨٧ من الترجمة العربية .

(٢) فيورنتينو (Fiorentino) : مختصر تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٥
وألفريد وليام (A . Yiullaume) تراث ؟ الاسلام ص ١٧٢ .

(٣) الكونت هنري دي كاسترو : الاسلام ص ١٦٦ — ١٦٧
من الترجمة العربية .

الرحلات (١) . ولهذا السياحات أثرها في صلة الشعوب والأديان ، على نحو ما نرى فعله اليوم مثلاً في نشر تجار المسلمين لدينهم في قلب أفريقيا ، فهل تكون رحلاتهم القديمة في قلب أوروبا غير ذات أثر في التعريف بالاسلام !!! وكذلك كان يرحل تجار الغرب إلى الشرق بحكم غناه ورقيه ، وقد كثرت تلك الرحلات ، واتصلت بعد ما مهدت الحروب الصليبية منذ أول عهدها للاختلاط القوي ، وزادت التعارف بينهما .

وإلى جانب ذلك رحلات غير التجار من الغربيين لأغراض مختلفة ، من نزهة وتطبيب ، واستفادة ، ووصفهم لما يشهدونه في الأقطار الإسلامية في كتب رحلاتهم وأحاديثهم ، مما كان قد ينطوي في تلك العصور على غير قليل من الأخطاء في التعريف بالشرق والاسلام ؛ لكنه عامل له قيمته في وصل ما بين الدينين على كل حال .

فنتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالكثير من آراء الاسلام وعقائده ؛ تعريفاً لا بد أن يكون له أثره بفعل النواميس السكونية في حياة الأفكار والآراء والعقائد ، من حيث تأثير بعضها في بعض .



الفصل الثاني

﴿ الاتصال المعنوي بين الدينين ﴾

١ — في الوقت الذي كانت تفتح فيه الأمة الإسلامية (١) إلى الاستقرار لتقوم بنصيبها في خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا ؛ خلال المدة من القرن الثامن إلى الثالث عشر الميلادي ، في ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية في الغرب غافلة هامدة .

كان فيه ما هو صورة أمة أو حكومة ، لكن لا أمة ولا حكومة (٢) : الاشراف فيه جهلاء ، أميون ، حتى ليقعون الوثائق والقوانين المهمة ، بصورة صليب ، هي كل ما يعرفون من الامضاء ؛ وحتى ليرى في القرن التاسع الميلادي ، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاة الدولة أميا لا يكتب ؛ بل في القرن الرابع عشر ، كان رئيس الجيوش الفرنسية ، وأعظم رجال الدولة ، وأول أكابر عصره أميا (٣) .

(١) آثرت أن أصفها « بالاسلامية » لا « بالعربية » ، لأن الوصف الأول هو الصحيح في التاريخ ؛ إذ لا يصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ؛ فقد كانت بعد يسير من ظهور الاسلام ؛ بفضل انتشاره وامتداد حركة الفتح ، مؤلفة من عناصر مختلفة ليس العرب أكثرها .

(٢) م . جيزو (M. Juzot) : التاريخ العام للحضارة في أوروبا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ... وهو المترجم إلى العربية تحت عنوان التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية ؛ على يد الخواجه حنين نعمة الله خوري والمطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٧٧ م — ١٢٩٤ هـ

وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب ص ٦١٤ .

وروبرتسون ولیم : كتاب تاريخ شارلكان ؛ المقدمة ص ٣١ ، ٣٢ ،

٢١٦ من الترجمة العربية .

(٣) المصادر السابقة نفسها .

وكان الدين المسيحي قد صار إلى بدع بربرية وأكثر رجاله جهلة ،
لا يستطيعون التوقيع على القوانين التي تصدرها المجامع . والقلة المتعلمة منهم
كانوا يمضون وقتهم في الأديرة ، يحجون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الأوراق
اللازمة لنسخ الكتابات الدينية (١) .



٢ — في هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوي بين الإسلام
والمسيحية ؛ ذلك الاتصال الذي لا يزيد الإفاضة في وصفه ؛ بل تناله بقدر ما نبين
طرائق نقل المعارف الدينية وأثرها في الحياة المسيحية ، وفي العقلية المسيحية ،
وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما ألى هذا مما هو طريق لبيان ما قصدنا إليه
من صلة بين الدينين .

وإذا كان يستكثر إطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب في كل شيء
وأن كل العلماء المعروفين من جميع الأمم إلى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر
إنما كان كل عملهم هو تقليد العرب (٢) ، فلا منفر من القول بأن الثقافة
الإسلامية قامت بدور المرشد الأمين ، وأمدت متعلمي القرون الوسطى
بمادة كثيرة لدراساتهم (٣) .

(١) المصادر السابقة نفسها .

(٢) فيبر (Weper) : كتاب تاريخ العالم (Weltgeschichte)

ج ١ فقرة ٤٤٤ ص ٨٠٦ .

وروبرتسون وليم : المصدر السابق نفسه ص ٢٩٩ .

وجوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ .

(٣) ر . وليم : المصدر السابق ص ٢٩٩

وجويدودي روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٥ .

والفريدجيوم : تراث الإسلام ص ٢٤٣ من الأصل و ص ٢٣٤ ج ١

من الترجمة العربية التي نشرتها حديثاً لهذا الكتاب « لجنة الجامعيين
لنشر العلم » .



٣ — وأول ما بدأ ذلك الاتصال ، كان بالتعلم من مسلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتثقف فيها الخاص والعام ، ومرجع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ؛ وقد كانوا بآدى الأمر قليلين ، ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم .

وإذا كان قد يشك في أن البابا سلفستر الثانى نفسه « سنة ١٤٩٩ م » ، قد تعلم على العرب في بلادهم ، فلن يشك أبدا في أن كثيرين غيره قد تعلموا في هذه البلاد .

ثم تلا هذا الدور دور محاولة نقل المعارف إلى أنحاء أوروبا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يتهمون بالسحر (١) .

ونمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى ؛ لئرى قسطنطين الأفريقى الملقب بمعلم الشرق والغرب ، في القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب في ترجمة العلوم عن العربية (٢) .

ويطرد هذا التناء فنرى في القرن الثانى عشر مثل يوحنا بن داود الأندلسى اليهودى ، وجيرار الكريمونى . الذى ترجم وحده ما لا يقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا ما بين صغير وكبير (٣) .

(١) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ .

الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

(٢) أرتورو كاستيليونى (Arturo Castiglioni) الأستاذ بجامعة

يادوفا : كاتب مادة قسطنطين الأفريقى في دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٣) كارلو ألفونسو نالينو (Carlo Albhonso Nallino) الأستاذ

بجامعة روما وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة — جيراردو —

من دائرة المعارف الايطالية الجديدة . (Gherardo)

وأفلاطون النيفولى يترجم المعارف الإسلامية عن العربية والعبرية .
وآخرون غيرهم .

بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون في نواح مختلفة من
أوربا ؛ ففي صقلية ، ونابلى وطليلة ، وقشتالة ، وفرنسا ، تقام تلك المعاهد ؛
ونرى ملوكا أقوياء ، يبذلون جاههم وما لهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها ، على
نحو ما كان في قصور ملوك الشرق المسلمين .

ومن أكبر هؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم ، فردريك الثانى هو هشتاوفن
الالماني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وحاكم صقلية . وألفونس الحكيم
القشتالي ، فتحت إشرافهما اشتغل مترجمون من أنحاء مختلفة في أوربا . وكان
« سكوت ميخائيل الاسكتلندي » ، في حاشية فردريك المذكور ، يشرف
على الترجمة الجديدة لأرسطو ، وتفسير فلسفته الإسلامية من اللغة العربية ،
ألى اللغة اللاتينية (١) مع آخرين من جنسيات مختلفة ؛ كما كان الحال كذلك
تحت إشراف ألفونس الحكيم في القرن الثالث عشر نفسه .

وأعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء في الأمة الإسلامية . فكان ألفونس
الحكيم يصحح بنفسه ما يترجم ألى اللغة القشتالية (٢) ؛ ومنفريد بن فردريك
هو هشتاوفن يترجم بنفسه (٣) .

ولا نغفل للقلم في وصف حركة هذا النقل لثلا نبعد عن موضوعنا ، فنكتفي
بأن نقول في إجمال إن الثقافة الإسلامية كانت منتشرة في جميع أنحاء أوربا
في القرن الثالث عشر الميلادي (٤) .

(١) دائرة المعارف الانجليزية مادة سكوت . (Scot)

(٢) ماريو كاسيلا (Morio Casella) الأستاذ بجامعة فيرنسة الايطالية

كاتب مادة « الفونسو الحكيم » في دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٣) مادة منفريد من الدائرة الايطالية الجديدة .

(٤) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧ — وأن حركة الترجمة

عن العربية في أوربا خلال القرون الوسطى لتستحق الدراسة المنفردة ، —

وإنما يجب أن نتولى بالتفصيل نقطا ثلاثا ، تمس موضوعنا مساقويا
تلك هي :

(١) معرفة الأوربيين للغة العربية ، لغة المعارف الإسلامية والدين
الإسلامي .

(٢) الاتصال الفلسفي بين أوروبا والامم الإسلامية ، لما كان هناك من
صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية في تلك الأزمنة .

(٣) معرفة الأوربيين للعلوم الدينية الإسلامية بخاصة .

١ - اللغة العربية في أوروبا

٤ - لاشك أن اللغة العربية من أقرب الطرق لمعرفة الشؤون
الإسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو إذا كان انتشار اللغة العربية في أوروبا مظهرا
له قيمته في درجة الاتصال بين الإسلام والمسيحية الغربية .

ولقد رأينا في الفقرات السابقة ، أن الأمم المجاورة للدول الإسلامية
تكاثرها بالعربية شعرا ، على مثل ما في قصيدة تقفور « فصل ١ - فقرة ٧ » .
وزى الأسبانيين جيران المسلمين في الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب
يكتبون عنهم بالعربية إلى المسلمين في الأندلس والمغرب (١) . وكما نجد

== وأرجو أن أصل من ذلك إلى ما يكشف جليا عن هذا الجانب من صلة
الشرق بالغرب ، كما أهيب بالباحثين أن يعنوا بالنواحي المختلفة من انتشار
الثقافة الشرقية بعامة ، والإسلامية بخاصة في أوروبا لهذا العهد ، استيفاء
لتاريخنا ، وهامم أولاء الباحثون الأوربيون قد بدءوا يتولون ذلك بشيء
من الإنصاف وحب الحقيقة .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٩ - طبعة بولاق . ==

الاتصال الحربى بين الطرفين يدفع ألى تعلم اللغة العربية ، فيبدأ الفرنسيون

== إذبروى أن الأذفونش كتب ألى أبى يوسف يعقوب صاحب المغرب الذى كان قد جاز إلى الأندلس ، رسالة من إنشاء وزير له يعرف بابن الفجار ؛ ونصها :
« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله و كلمته ، الرسول الفصيح : أما بعد فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولاذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار ، وأسبى الدرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة . وأتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ؛ لا نستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكى لى عنك ، أنك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ؛ فلا أدرى أ كان الجبن قد أبطأ بك ، أم النكذيب بما وعد ربك . ثم قيل لى إنك لا تجدد إلى جواز البحر سبيلا ، لعله لا يجوز لك التقجم معها ، وهأنا أقول لك ما فيه الراحة لك ، وأعتذر لك وعنك ، على أن تفى بالعهود والمواثيق ، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب : النصل الرقيق) ، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى ، والطرائد والمسطحات ؛ وأجوز بحملى إليك ، فأقا تلك فى أعز الأما كن لديك ؛ فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ؛ وإن كانت لى كانت يدي العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملتين ، والحكم على البرين ؛ والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الأرادة ، لأرب غيره ، ولاخير إلاخيرته إن شاء الله تعالى . »
وقد سقت للقارىء الكتاب كله ليرى فيه شاهدا لقوة صلة أهل ذلك البلاط الأفرنجى بالإسلام ، ومعرفة الكثير عن عقائده ، ألى جانب ما استشهدنا عليه من مكاتبة الفرنج لجيرانهم المسلمين بالعربية .

بتعلم العربية في الحروب الصليبية ، ويدرسونها في أسبانيا على أهلها (١) .
فكذلك نرى أن المناطق التي امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم « راجع الفصل
الأول فقرتا ١ ، ٢ » كان أهلها يتعلمون العربية بحكم هذا الاتصال ؛ إذ كانت
تؤخذ منهم الرهائن إلى البلاد العربية كما تؤخذ منهم الأسرى ، فيتعلم
كل هؤلاء العربية من أهلها ، ويعودون بها إلى بلادهم ، كما يتعلمها من قد
يعتنق الاسلام من أوربي هذه البلاد ؛ وكذلك يظل يتكلمها إلى حين من
يبقى من المسلمين في أوربا أسيرا أو رقيقا ، أو يتنصر في بعض تلك المناطق (٢)
وحيثما قويت حركة التعلم والنقل العلمى التي سبقت الإشارة إليها « كان
المتعلمون من الأوربيين في البلاد الإسلامية يتعلمون العربية ؛ كما كان يجيدها
المترجمون للعلوم الإسلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم في الغرب ؛ ومن هنا
نسمع منذ عهد مبكر أن رجالا من ذوى الشأن الدينى أو العلمى أو السياسى ،
كانوا يعرفون العربية ؛ فمثلا نرى القسيس هرتموت (Hertmot) رئيس دير
القديس جالو بفرنسا في أواخر القرن التاسع الميلادى كان يعرف العربية
والعبرية (٣) ، والبابا سلفستر الثانى كان يجيد العربية (٤) ، والفيلسوف
الشهير البرت الكبير كان يعرفها ؛ كما كان يتكلمها ملوك أوربيون كفيرديريك
الثانى ، ورجار ملك صقلية ، وغيرهم .

وما يزيد أن نحصى متكلمى العربية من ذوى الشأن في أوربا ، ملوك ،
وعلماء ، ورجال دين ، فهذا ما لا حاجة بنا إليه ولا يدلنا به ؛ وإنما نكتفى في الدلالة
على درجة انتشار العربية في أوربا ، خلال القرون الوسطى ، بما يقوله ، « روجر
با كون » في القرن الثالث عشر : إن الفلسفة مأخوذة عن العرب فلا تفهم

(١) رينو : المصدر السابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(٢) رينو : المصدر نفسه ص ٣٣ من الترجمة العربية .

(٣) رينو : المصدر السابق . ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ .

كما يجب إلا إذا عرفت اللغة التي أخذت منها (١) ؛ والعبرية واليونانية لازمتان لفهم الكتب المقدسة ، وفلسفة أرسطو ؛ فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد .

وكان با كون هذا يلوم الذين درسوا الفلسفة من المترجمات دون الأصول ، لا يستثنى من ذلك اللوم حتى القديس توما الأكويني نفسه (٢) .
فهذا كاف للقول في طمأنينة ، بأن اللغة العربية كانت منتشرة في البيئات المتكيفة في أوروبا ، خلال تلك العصور .



٥ - وقد قامت في أوروبا حركة مقاومة للإسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الإسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية ؛ فكان « ريموند لول » ، الذي يحسن اللغة العربية ، يجعل من الدراسات الشرقية أداة حرب صليبية هادئة ، سلاحها رוחي خالص ، فيؤسس سنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان في ميرامار (Miramar) لدراسة اللغة العربية (٣) .
كما أسست أول مدرسة عرفتها أوروبا للدراسات الشرقية في طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٤) ، كما كانت تعلم العبرية وغيرها من مواد تعين على إخراج مبشرين ضد الإسلام (٥) . ولعله لهذا الغرض من الحرب المعنوية قد تقرر إيجاد كراسي لدراسة اللغات الشرقية من عربية وغيرها

(١) الفريد جيوم : تراث الإسلام ص ٢٤٤ من الأصل ، ص ٢٣٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٣) إيرنست باركر : تراث الإسلام ص ٦٥ من الأصل ؛ و ١٢٤ - ١٢٥ ج ١ من الترجمة العربية .

(٤) الفرد جيوم : تراث الإسلام ص ٢٧٢ من الأصل ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ج ١ من الترجمة العربية .

(٥) المصدر السابق نفسه .

في جامعات ، باريس ، ولوفان ، وسلمنقة ، في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي (١) .

فهذه الحركات الإيجابية والسلبية في دراسة اللغة العربية ، أعنى تعلمها لاقتباس المعارف الإسلامية ، أو لمحاربة الإسلام والتبشير بالمسيحية ؛ كانت هذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحاً للغرب بالشؤون الإسلامية (٢) .



٦ — وإذا ما تحدثنا عن اللغة العربية بأوروبا لتلك العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الإسلامية ، فإنه يجب أن نذكر لغة أخرى سامية ، هي اللغة العبرية ، التي كانت شقيقة العربية تعاوناً ، كما هي شقيقتها نسباً ؛ فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الإسلامية ، باشتراك اليهود في الميدان العقلي جنباً إلى جنب مع المسلمين ، حين اطمأنوا في ظلال تلك الحضارة — ولا سيما في أسبانيا — ؛ فكانت لهم فلسفة إسلامية العناصر عربية النصوص ، وإن كتبت حيناً باللغة أو الحروف العبرية (٣) .

وقد كانت لفلسفة اليهود المذكورة أثر عظيم على الفلاسفة الغربيين في العصور الوسطى (٤) . كما أن اليهود قد حفظوا لأوروبا الثقافة الإسلامية

(١) إيرنست باركر : كتاب تراث الإسلام ص ٦٤ من الأصل ، ج ١ ص ١٢٥ من الترجمة العربية .

(٢) لم أر الاطالة بالاشارة إلى ما كان من صلة قوية للغرب باللغة العربية وآدابها ؛ تلك الصلة التي تركت أثرها في تطور الفنون الأوروبية في العصور الحديثة مما تجدد غير قليل عنه في فصل « الأدب » من كتاب تراث الإسلام : وكتاب فيكتور هيجو ؛ علم الأدب عند الفرنج والعرب ، للمقدسي وغيرها .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية — مادة ابن ميمون — وجورج مور في كتاب تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٩٨ . من الترجمة الإيطالية .

(٤) المصدران السابقان .

بترجمتها إلى العبرية ، وكثيرا ما كانت الترجمة منها إلى اللاتينية (١) ؛ حتى لقد يضيع الأصل العربي بعض الأحيان ، ولا يبقى إلا الترجمة العبرية فقط (٢) ، كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية إلى غير العبرية من اللغات الأوروبية كالاسبانية مثلا (٣) .

ولقد نقل اليهود الثقافة الإسلامية نقلا فعليا إلى أوروبا ، حين هاجروا من أسبانيا إلى الشمال ، لأسباب سياسية أو اجتماعية مختلفة ، ولا سيما هجرتهم إلى جنوبي فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (٤) .

وكانت هذه العبرية من اللغات التي شاع تعلمها في الغرب حينما استيقظت الأفكار ؛ وزعماء رجال الإصلاح كانوا يعرفونها « كهنس » ولوتر وغيرهما (٥) .

٢ — الاتصال الفلسفي بين الغرب والأمم الإسلامية

٧ — الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكري ، ديني وغير ديني ؛ والفلسفة في تلك العصور الوسطى كانت أشد عناية بالجانب اللاهوتي

- (١) فيوريفتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٥٤ .
- (٢) دائرة المعارف الإسلامية — مادة فارابي .
- (٣) دائرة المعارف الإسلامية — مادة ابن أبي الرجال .
- (٤) تعليق رقم ١ على هامش ص ١٧٤ ج ١ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

(٥) نقرأ في كتاب قصة لوثر المطبوع في قائلته سنة ١٨٤٠ ما نصه « ... وبناء على ذلك فوض لراهب من الدومينيقيين اسمه « هكستراين » ، أمر سلطاني بأن يبيد ويحرق جميع ما يطلع عليه ويجده من الكتب العبرانية ؛ وقرر بعض علماء الكلام بمجلس المشورة في باريس أنه مادام الناس يرخص لهم في تعلم اللغتين اليونانية والعبرانية ، فلا أمل ببقاء الدين » — ص ١٣ ، ١٤ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

— ميتا فيزيقا — . ونستطيع القول بأن فلسفة تلك العصور الوسطى كانت إسلامية القيادة ؛ فلم يلبث الغربيون بعد ما ذكرنا من اتصالهم بالإسلام ، أن عرفوا ودرسوا فلاسفة الاسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وغيرهم (١) .

ومن المهم أن نلاحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين في أقصى الشرق ؛ فالغزالي المتوفى سنة ١١١١ م قد ترجم في السنين الأولى من القرن الثاني عشر - حوالى نصفه (٢) - إلى اللاتينية .

وهكذا ظهر التأثير هؤلاء الفلاسفة المسلمين في تفكير المفكرين الغربيين في أقصى أنحاء أوربا ؛ فكان يوحنا دنس سكوت الاسكتلاندى ، ق ١٣ - ١٤ يستوحى تأثير الارسططالية الإسلامية ، وبخاصة من ابن سينا (٣) ؛ كما يتأثر بابن سينا نفسه في ألمانيا الفيلسوف إيكهارت (٤) ؛

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم في باريس ، يعتمد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد (٥) . وألبرت الكبير يتأثر بابن سينا ، حتى ليقول

(١) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٥١ و ٢٥٤ ، من الأصل ج ١ ص ٢٥٣ و ٢٣٩ من الترجمة العربية .

(٢) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٠ .

الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٦ من الأصل ، ص ٢٣٩ ج ١ من الترجمة العربية .

(٣) جورج مور : تاريخ الأديان . الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٠

(٤) » » » » » ج ٢ ص ٣٠٥

واقراً شيئاً عن إيكهارت هذا في هامش الفصل الثالث بعد

(٥) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٨

رينان ، إنه مدين بكل شيء لابن سينا ؛ كما أن القديس توما الأكويني في إيطاليا
مدين كذلك لابن رشد (١) وهو في الوقت نفسه ممن تأثر بالغزالي (٢) .



وعلى غرار هذا أثرت الحركة الإسلامية في مقاومة الفلسفة على مثيلتها
في الغرب ، وترك طابع الغزالي العقلي والديني . أثرا على الباحثين النصراني من
اللحظة الأولى ، التي أمكن لكتاباته فيها أن تقرأ ؛ ولا يزالون يمنحونها
دراسة دقيقة (٣) ؛ واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين
الغزالي على مسائل لاهوتية (٤) .

وكذلك تأثرت الحركة الصوفية في أوروبا بعناصر إسلامية (٥) . ولسنا
نظيل هنا فنتولى شرح شيء من ذلك في تفصيل ؛ بل حسبنا أن تؤيد دعوى
الصلة والتأثر ، متوخين الرجوع إلى عبارات العلماء الغربيين ، تمهيدا لما
سنشرحه من نقط التأثر الخاصة بموضوع الإصلاح الديني المسيحي فيما يلي ،
محددین تلك المسائل هناك .

٣ - معرفة الأوربيين بالعلوم الدينية الإسلامية

٨ - أن ما أسلفناه من أمر انتشار العربية في أوروبا ، وأخذ الفلسفة
والعلم عن مصادر إسلامية ، ليؤهل في غير شك للاتصال بالمعارف الدينية

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨

(٢) ١ . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل . ج ١ ص ٣٠٣ ،
من الترجمة العربية .

(٣) ١ (٤) . جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل - ج ١
ص ٣٠١ - ٣٠٢ من الترجمة العربية .

(٥) نج . مور : تاريخ الأديان - ترجمة إيطالية - ج ٢ صفحات ٣٠٦
٣٠٧ - ٣١٥ - وواضح أننا لا نقصد هنا إلى دعوى أن للعرب أو المسلمين =

الإسلامية ، ولا سيما في تلك الأعصر التي كان الطابع الديني يسود الحياة فيها ، بل كان أبرز ما يهيمن عليها .

على أنا نملك فوق ذلك أخبارا عن محاولات إيجابية في أوروبا للاتصال بالمعارف الدينية الإسلامية ، اتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها إلى الغرب ، تعريفها لها ، لأغراض مختلفة .

ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، ترجم القرآن إلى اللاتينية ، رغبة في نقده ، ومناقشته ؛ إذ أن بطرس الفينرايلي (Pietro il Venrapili) الذي كان رئيس دير كولونيا بفرنسا منذ سنة ١١٢٢ م قد دعا إلى ذلك ؛ فقام بتلك الترجمة ، روبرت الراجيني (Roberto de Retine) ، وهيرمان الدالماتي (Herman de Dalmatie) ؛ وتمت الترجمة في سنة ١١٤٣ م ؛ وهي الترجمة التي طبعت فيما بعد ذلك بأربعة قرون في مدينة بازل « سنة ١٥٤٣ م (١) »

== فلسفة خاصة لها شخصيتها المستقلة أولا ، مما قد يختلف الرأي فيه ، وإنما تقصد إلى بيان الاتصال العقلي والاستفادة مما كان العرب يقومون إذ ذاك على رعايته من علم وفلسفة . لنمهد ببيان هذا الاتصال طريق الانتقال وتسرب الأفكار من البيئات الإسلامية إلى البيئات الأصلحية ، على ما سفتولاه تفصيلا فيما بعد . وليس هناك من يشاحننا في هذا القدر حتى أقصى المتطرفين في إنكار ما للعرب من فلسفة خاصة ، أو زيادة أكسبوها للمعرفة الإنسانية . فإن لهم على أي فرض تلويحا إسلاميا ، واتجاها في تطبيق الفاسفة على الإسلام أو التوفيق بينهما ، لن ينكرا عليهما .

(١) مادة قرآن في دائرة معارف الأديان والأخلاق .

ولويجي بونيللي في مقدمة ترجمته الإيطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩

ص ١٥ .

وقد ذكر الأستاذ ترند في كتاب تراث الإسلام . ج ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية — روبرت هذا أحد مترجمي القرآن ، بين من زاروا مدرسة طليطلة ، وسماه « روبرت الانجليزي » (Ropertus Angelicos)

وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن في الغرب ؛ نذكر أننا نجد خبرا عن ترجمته كذلك إلى اليونانية في وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الأخيرة في الإصلاح ؛ إذ يروى أن ذلك قد تم في القرن الرابع عشر الميلادي على يد يوحنا كانتا كوزيني ، الذي كان أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية في بيزنطة ، باسم يوحنا السادس ، ثم تهرب ودعى يوسف ؛ ويذكر كذلك أن راهبا يدعى ملاتيوس ، كان مسلما ثم اعتنق الدين المسيحي وترب ، وقد عاونته في هذه الترجمة (١) .

بل نجد أن القرآن نفسه لم يكن يعرف في أوروبا بتراجمه غير العربية فقط ، وإنما كان يقرؤه قسيسون بالعربية في أوروبا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ما ورد في إحدى رسائل القسيس ريكولدو الإيطالي المتوفى سنة ١٣٢٠ م (٢) .



٩ - وبين اللاهوتيين المسيحيين في الشرق والغرب ، رجال عرفوا الإسلام معرفة غير يسيرة الشأن ، ولا ساذجة ، فاطلعوا على معارفه الدينية وناقشوا فيها ، وجادلوا أهلها ؛ فمن هؤلاء في الشرق مثلا : يوحنا الدمشقي - البطريق يحيى - الذي عاش في القرن الثامن الميلادي ، هو وأبوه في قصر الخليفة الأموي « عبد الملك بن مروان » وله في جدل المسلمين أخبار ماثورة ، كما صنف في ذلك ؛ وهو يعتبر أول منظم لعلم اللاهوت (٣) .

(١) الدرة النفيسة في شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ . وقد أشرنا في الفصل الأول فقرة ٩ ، إلى خبر هذا الراهب المنتصر ؛ كما ذكرنا في فقرة ١٠ من هذا الفصل ، خبر مصاهرة السلطان أورخان العثماني لهذا الأمبراطور .
(٢) هنري دي كاسترو : الإسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية

(٣) الخورى عيسى أسعد : كتاب الطرفة النقية ص ٢٠٠ - ٢٠١ ج . مور : كتاب تاريخ الأديان : ج ٢ ص ٢٥٧ .

ثم تلميذه «تيودور أبو قرة» - ق ٨ م أيضا - وهو اللاهوتي الضليع ،
المتمكن من معرفة اليونانية والعربية ؛ والذي خلف ثلاثة وأربعين تاليفاً
عن الإسلام ، واليهودية ، والمذاهب المسيحية (١) .

وغير هؤلاء كثيرون من رجال الدين العارفين بالإسلام في الشرق ، والمؤلفين
في الشؤون الإسلامية . والذين لان شك أنه كان لكتابتهم أثر في الكنيسة الغربية ،
لعدم انقطاع الصلة بين الكنيستين في ذلك العهد ما على أشرنا إليه سابقاً .
على أنا لا نطيل الحديث عن هؤلاء الشرقيين ؛ بل نعود إلى الغرب نفسه ،
فترى أن بطرس الفيبرابلي الداعي إلى ترجمة القرآن اللاتينية ، يزور إسبانيا سنة
١١٤١ ، فيدرس هناك أصول النظريات الإسلامية الدينية ، ويكتب بحفا في
نقد اليهودية والإسلام (٢) .

ولقد أشرنا قبل الآن - الفصل الأول فقرة ١١ - إلى ما كان من الرغبة
المضطربة لريموند لول في تبشير المسلمين بالمسيحية ؛ فكان له من المعرفة
بالعربية واللاهوت الإسلامي حفظ عظيم ، ولا ينكر الباحثون الغربيون صلته
بالمصادر الإسلامية وأثرها فيما ترك من مؤلفاته ، ولا يخامرهم شك في اقتباسه
قسماً عظيماً من لاهوته عن العرب ، كما تم عن ذلك رسالته عن أسماء الله
المائة (٣) .

و«لول» هذا هو الذي أشرنا سابقاً - فصل (٢) فقره (٥) - إلى استعماله
اللغة العربية والمعارف الإسلامية أداة لحرب صليبية معنوية ، وأنه أسس
لذلك في القرون الثالث عشر مدرسة تبشيرية ، تخرج رجالاً يحسنون ذلك
الكفاح ضد الإسلام ، كما أشرنا هناك إلى مدرسة المبشرين في طليطلة لهذا

(١) الخوري عيسى : المصدر السابق - ص ٢٠١ .

(٢) مادة (Pierre le Venerable) من دائرة المعارف الفرنسية ج ٢٦
(Le Grand Encicl . .) .

(٣) ١ . جيوم : تراث الإسلام ص ٢٧١ من الأصل . ج ١ ص ٣٠٠
من الترجمة العربية .

الغرض عينه ؛ ونقول هنا ، إنه كان من المنخرجين في تلك المدرسة « ريموند مارتن » - ق ١٣ - . وكانت له معرفة بمؤلفي العرب ، ربما كانت منقطعة النظير في أوروبا بأسرها ، حتى في العصور الحديثة ؛ ولم يكن يعرف القرآن وسنة الرسول فحسب ؛ بل كان يعرف كذلك كبار العلماء من رجال الدين المسلمين ، وعظماء فلاسفة الإسلام » (١) .

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الديني في الإسلام ، والأبحاث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ؛ ظواهر تجعل الاتصال بين الدينين وثيقا قويا .



١٠ — ومع ما رأيناه من اطلاع الغرب على الدراسة الدينية الإسلامية ، نقف هنا وقفه خاصة ، لنشير إلى عالم أندلسي كبير الخطر ، مؤثرين أن نلفت النظر أولا إلى ما يلحظه الباحثون الغربيون ، من أن أسبانيا الإسلامية كانت مرآة صافية يتجلى فيها شتى المذاهب الإسلامية ، كما كانت أداة هامة في نقل تأثير العرب إلى الغرب (٢) .

وذلك العالم الذي نبتغي الإشارة إليه هو : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ؛ المؤيد القوي للفكرة الظاهرية بالأندلس ، والذي تعتبر الناحية المبتكرة فيه ، هي تطبيق أصول هذه الفكرة على العقائد ، فلا يأخذ فيها إلا بالمعنى الظاهري للقرآن والأحاديث الموثوق بها ؛ وعلى هذا الأساس من البحث ، نقد الفرق الإسلامية نقدا شديدا ؛ كما كان يمثل أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوسل بالأولياء ، ومذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم (٣) .

(١) المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل - ج ١ ص ٣٠١ من الترجمة العربية .

(٢) راجع في هذا صفحات ٨٨ و ١٠١ و ١٠٢ و ٢٧١ من ج ١ : تراث الإسلام الترجمة العربية .

(٣) أرندونك C. Van - Arendonac . كاتب مادة « ابن حزم » في دائرة المعارف الإسلامية ص ١٣٩ - ١٤٠ من المجلد الأول من الترجمة العربية .

هذا العالم ذو الآثار الكثيرة ، والآراء القوية ، والشخصية الواضحة ، لا أجد عنتاً في القول بأن الغرب المتصل باللغة العربية ، والدراسات الاسلامية ، — وبخاصة في أسبانيا — قد عرفه واتصل بآثاره .

ولئن كنت لا أجد الشاهد النصي على هذا ، فإني أسوق لتأييد استنتاجي الاعتبار الآتية :

١ — أنه عاش في أسبانيا ، حيث كان الاتصال قويا جدا ، بين الغرب والآثار الاسلامية (١) . على ما قدمنا من بيان .

٢ — انه أحرز حظا عظيما من الشهرة ؛ وكانت له آثار قيمة ، كما كانت حياته منار مقاومة عنيفة ، واضطهاد شديد ؛ فثله ليس بالمغمور ، ولا بالمجهول .

٣ — بقاء أفكاره وآرائه ، واستمرار الخلاف حولها إلى ما بعد وفاته بنحو قرن تقريبا (٢) ، فذلك خليق بلغت النظر إليه .

٤ — مقاومته العنيفة لليهودية والنصرانية على اختلاف مذاهبهما ، وكثرة مناقشته وردده على مواضع اختلافهما مع الاسلام ، وإظهار مواطن الأخذ والرد فيهما .

فمثل بطرس الفينرا بلي (٣) وهو رئيس دير ، إذا ما زار أسبانيا بعد وفاة ابن حزم ببضعة وسبعين عاما ، على ما نقلنا آنفا من خبر ذلك (٤) ، وعرف

(١) تقرأ في كتاب تراث الاسلام — ج ١ ص ٥٤ — من الترجمة العربية ما نصه : « وقد استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة في أسبانيا في القرن العاشر . فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوروبا ، ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت شيئا فشيئا ، مركز الثقافة الاسلامية في القرن الحادى عشر ، بعد أن خرب البربر قرطبة في أوائل هذا القرن ، وبقي لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى سنة ١٠٨٥ ... الخ » ؛ وابن حزم من أهل القرن الحادى عشر الميلادى — توفى سنة ١٠٦٤ م —

(٢) ارندنك : المصدر السابق ص ١٤٣ من الترجمة العربية .

(٣ ، ٤) انظر الفصل الثانى فقرة ٨ .

هناك النظريات الدينية الإسلامية معرفة نقدية ، يكتب صاحبها بحثا في نقد الإسلام واليهودية ، لا يكون من اليسير أن يجهل ابن حزم وآثاره ، بعد الذي قدمنا من ملاحظات .

ولسنا نذكر « بطرس » هذا إلا على سبيل المثال ، فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على أسبانيا ؛ واتصلوا بالنظم الإسلامية كما هو معروف ، فلا علينا إذا ما رجحنا أن ابن حزم قد عرف في الغرب ، وعرفت آراؤه الخاصة ، التي أشرنا إليها آنفا ؛ وسنشير إليها فيما بعد ، عند تناول مبادئ الإصلاح المسيحي تفصيلا .

نرجح معرفة الغربيين لابن حزم ؛ فهم الذين عرفوا من في المشرق البعيد ، سريعا وجيدا ، كالغزالي وغيره على ما بيناه من قبل .



١١ - ولعل من خير ما تتم به إعداد ذهن القارئ للحديث التفصيلي عن تأثير مصلحي المسيحية بالإسلام ، أن نلفت النظر إلى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ، ودينيهما ، في البيئة الألمانية بخاصة ، أذ هي التي كانت ميدان معارك الإصلاح العملي للمسيحية ، في دوره التنفيذي .

ففي حركة نقل العلم الإسلامي إلى أوروبا ، قد رأينا أن ناصرها الأكبر ، إنما هو الإمبراطور الملحد ، فردريك الثاني هو هنشتاوفن الألماني ، الذي يعرف تاريخ الكنيسة أثر صراعه وصراع أسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من أضرار .

ومبول هذا الإمبراطور ، الشرقية العربية ، بل الإسلامية ، كانت مثلا غريبا في أوروبا ، في العصور الوسطى ، بل في هذه العصور الحديثة أيضا ؛ فلقد أثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، وظهر التأثير العربي في تربته وفي ميوله الشخصية والطبيعية ، وفي علاقاته بالعالم الثقافي الشرقي ، ولعظم

التأثير العربي عليه ، كان يلقب «السلطان المعمد» (١) . ومنذ أعوامه الأولى كان يحيا على أسلوب عربي ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ من عهد زواجه الأول مقاصير للسيدات — يسميها الكتاب الغربيون حريما (٢) — وعلاقاته الودية مع الشرق ، ولا سيما مصر ، وتونس ، مما يلد تتبع بحثه ، ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق في أوروبا ، خلال العصور الوسطى .

ثم نرى أن والده ألفونس الحكيم الذي هو ضريع فريدريك الكبير في هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ؛ والذي عمل بمجد على نقل الثقافة الإسلامية الى أوروبا ، نرى أن والده ألفونس هذا إنما هي أميرة — سفيفيا — المقاطعة البافارية (٣) ، التي منها فريدريك الثاني وأسرته .

كما نرى أن الفيلسوف الشهير ألبرت الكبير (٤) يمت بصلة واضحة إلى فريدريك الثاني أيضا ، وليس الفيلسوف إلا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه .

وكذلك نجد أن القديس توما الأكويني ، الفيلسوف اللاهوتي (٥) ، إنما هو ابن أحد أقارب أسرة هذا الامبراطور — هوهنشتاوفن — أيضا . وكلا

(١ ، ٢) رافاييل مورجن (Raffaello Morghen) أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة روما — في مادة فريدريك الثاني هوهنشتاوفن . دائرة المعارف الإيطالية الجديدة .

(٣) مادة ألفونس الحكيم في دائرة المعارف الإيطالية .

(٤) ألبير الكبير «١٢٠٥ — ١٢٨٠ م» فيلسوف مدرسي وراهب دومينيكاني ، واسع الاطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربرت سلفستر تلميذ العرب ؛ وقد قدمنا أنه كان يعرف العربية .

(٥) القديس توما «١٢٢٥ — ١٢٧٤ م» أشهر تلامذة ألبرت الكبير ، ونسبته «الأكويني» الى أكوينو ضاحية نابلي ، وهو راهب دومينيكاني أيضا ؛ ومنحه البابا لقب قديس ؛ ولقبه بابا آخر بعد ذلك «بالمعلم الملائكي» .

الفيلسوفين قد أصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها — أنظر فصل ٢ فقرة ٧ — .

ومن كل هذه الشواهد نقدر صلة البيئة الألمانية ، بالثقافة الاسلامية والمؤثرات الاسلامية ؛ ونرى أثر تلك البيئة يظهر في قشتالة ، بأقصى الغرب الجنوبي في أوربا ، كما يظهر في إيطاليا جنوبا .

على أنا نرى في القرن التالي لما سبق — أى القرن الرابع عشر الميلادى — أن بافاريا هذه نفسها ، هى المعقل لحماية أعداء السلطة الكنسية ، الذين هم من أنصار الفلسفة الرشدية ، وأحرار الرهبان الفرنشيسكانيين ، إذ يحمى بلاط لويس ملكها مثل : مارسيليو دى بادوفا الرشدى الشهير ، وعدو الكنيسة كما يحمى « أوكام » الفيلسوف الفرنشيسكانى — الذى سنرى علاقته الفكرية بلوتر — وأوكام هذا هو الذى قال للامبراطور كلمته التاريخية الشهيرة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (١) .

وفى هذه البيئة الألمانية قد رأينا التأثير الاسلامى يصل الى « أيكهارت » — أنظر فصل ٢ فقرة ٧ — وسنرى فى الفصل التالى ، كيف يظهر هذا التأثير فى جماعة « إخوة وأخوات الفكر الحر » فى ألمانيا العليا ، وفى سويسرا ، كما سنرى أثر « ايكهارت » المباشر فى آراء الاصلاح البروتستانتى .

من كل هذا يتجلى للقارىء التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعمامة ؛ وأنه كان واضحا قويا فى البيئة الجرمانية — أى الميدان الأخير للاصلاح — .



١٢ — إلى هنا قد بينا مظاهر الاتصال المادى ، والاتصال المعنوى ، عقليا ، واعتقاديا ، بين الاسلام ، والمسيحية فى الغرب ، بيانا يحق لنا بعده أن نقول : إننا قد دللنا به على الطريق الناهج السوى لاننتقال ما انتقل من أفكار وآراء ؛ حتى ليحقق لنا بعد هذه المقدمات أن نتصدى لبيان النتائج .

(١) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٨ .

الفصل الثالث

من نتائج الاتصال

١ — نتقدم مطمئنين بعد الذي أبنا من طرق الانتقال ، ونواحي التأثير ، وعوامل التأثير ؛ فنشرح ما ترتب على هذا كله من نتائج عامة في الحياة الدينية ، والعقلية الأوربية ، من حيث مظهرها في تدين أهلها ، وفهمهم للدين ؟ ثم ما ترتب على هذا كله من نتائج خاصة في الإصلاح المسيحي نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا إليه من أفكار ؛ وناضلوا في سبيله من مبادئ ، عساهم قد تأثروا فيها بالاسلام .

نريد أن نبين ما تأثرت به — بصفة عامة — الحياة العقلية ، والحياة الاعتقادية ، والعلاقة بين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية وما إلى ذلك ، خلال القرون الوسطى ، إذ الصلة بالشرق والاسلام وثيقة .

كما نبين ما تأثرت به — بخاصة — حركة الإصلاح المسيحي نفسها ، تلك الحركة التي عملت فيها أجيال متعددة ، وطبقات من الناس ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر (١) .

على أننا حين نفسر هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لا نزعم أنه هو وحده الذي خلق حركة الإصلاح المسيحي ، وأنه سببها الأول والآخر ، بل نقدر

(١) ليس بدعا من الرأي التاريخي ، أن ننظر إلى أصول الإصلاح البروتستانتي هذا النظر البعيد ، بل هو الذي تتطلبه الدقة التاريخية ، وتؤيده السنن الاجتماعية ؛ على أن الكتاب عن تاريخ المسيحية قد صرحوا بهذا حتى جعلوا الإصلاح إصلاحين : الأول والثاني . ومن هؤلاء « ايرنستو بونايونى » في كتابه « معالم تاريخ المسيحية *Pietre Miliari nella storia del Cristianesimo* » وهو الحلقة الثامنة من مجموعة « مسائل اليوم » (*Problemi d'oggi*) .
عقد الكاتب المذكور في كتابه هذا فصلين : أحدهما عنوانه : الإصلاح =

ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها ، قد صملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها إلى النواحي العقلية والدينية ، التي قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامي .

فقصدنا العلمي ، إنما هو إلقاء الضوء الكافي على الجانب التاريخي من اتصال الدينين — المسيحية والاسلام — ببيان هذا الاتصال وأثره ، تاركين ماعدا ذلك من مؤثرات أخرى سببت ظهور الإصلاح الديني وتمامه ؛ لأننا لا نؤرخ الإصلاح تاريخاً شاملاً ، وإنما نقصد إلى بيان هذا العنصر من أسبابه بحسب .

(١) الآثار العامة

٢ — كانت مظاهر هذا التأثير العامة في حياة المسيحية بالغرب هي :

(أولاً) الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة ؛

ولعل هذا الغض من السلطة الكنسية قد بدأ منذ وقت مبكر في الشرق ،

=الأول، والآخر عنوانه: الإصلاح الثاني (la Prima - la seconde Riforma) وبدأ الأول بالحديث عن الفالدية في القرن الثاني عشر الميلادي . ومن أجل ذلك لا أجد تكلفاً في التفسير التاريخي الذي سرت عليه هنا في فهم أصلح المسيحية . ولا أظن أن في هذا الاتجاه تمييزاً ما . وليس يؤثر في صحة هذا النظر التاريخي أن تعد طلائع الإصلاح الأولى ؛ وبوادره القديمة إلحاداً وزيفاً ، عند الكتاب الكنسيين في تاريخ المسيحية ، فإن البحث العلمي لا يجزع من مثل هذا ، ولا يتأثر به ، ومثله مما تختلف فيه النظرة الدينية الصرفة عن النظرة العلمية في كل دين ، وأن تاريخ الأديان ليعرف المثل الكثيرة ، على أن ما عد كفرًا بالأمس ، هو هو ما صار ديناً في الغد .

بسبب انتشار الاسلام ؛ إذ دخلت في حمايته كنائس شرقية تمتعت بتساهل المسلمين، فوجدت الفرصة لترويج آرائها الدينية، التي كانت تحسب عند الكنيسة المحافظة بدعا، فثغرت بذلك قوة الكنيسة، وأضعفت تماسكها (١).

ثم كانت الحروب الصليبية، التي أنارتها حمية قوية، فقد كانت نتيجتها بعد أن اتصل الشرق بالغرب، اتصالا قويا، أن خمدت تلك الحمية، وفقرت حدتها، فلم ينته القرن الثاني عشر، ويبدأ القرن الثالث عشر حتى همد ذلك الحماس، ولم يعد يحرك القلوب الأوروبية؛ فوقف تدفقهم على الشرق بالكثرة الأولى؛ وتغير نظرهم للمسلمين وتقديرهم لهم؛ حتى انتهى الأمر أخيرا إلى تحديد سلطة الأفكار الدينية المطلقة على عقولهم (٢) والأقلال من سيطرتها على أفئدتهم.



٣ - ثانيا: تحرير العقل؛ وقد كان هذا التحرير الخطوة الأولى، والسبب الفعال لما أشرنا إليه من تحديد السلطة الكنسية. ثم هذا التحرير بتأثير عوامل مختلفة؛ كهذه المعارف العلمية المتنوعة التي اتصل بها الغربيون، وكان للشرق فضل الهداية إليها؛ وكالحركة الفلسفية التي ذكرنا علاقة الغرب فيها بالشرق؛ والفلسفة دائما تعطى العقل قوة الشعور بنفسه، والأحاساس بوجوده. ولقد مرت الفلسفة بأدوار مختلفة في علاقتها بالدين من مخالفة، وتوفيق وغير ذلك حتى كان مصيرها التحرر التام من سيطرته (٣).

(١) إلى هذا المعنى يتنبه مؤرخو الأديان من الغربيين؛ راجع تاريخ الأديان لمور في ترجمته الإيطالية ج ٢ ص ٢٥٧.

(٢) جيزو. تاريخ الحضارة. السابق ذكره. ص ٢٦١، ٢٦٤ من الترجمة العربية.

(٣) يلاحظ مؤرخو الفلسفة، أن الفلسفة المدرسية، قد كان مصيرها هو مصير الحروب الصليبية؛ فكما بدأت هذه الحروب بالرغبة في تخليص قبر =

وإذا ذكرنا الفلسفة وعملها في تحرير العقل ، فما يعنى موضوعنا أقوى المساس تلك الملاحظة التي يذكرها رينان في دراسته لفلسفة ابن رشد ، وهي : « أن الرهبان الفرنسيسكانيين كانوا أنصارا أقوىاء للفلسفة الإسلامية ، ومبادئ ابن رشد في أوروبا (١) . إذ نذكر أن هؤلاء الفرنسيسكان كانوا بحريتهم العقلية من أقوى المقاومين للسلطة الكنسية ، كما سنرى الأمثلة الكثيرة لذلك فيما يلي ، حتى نستطيع أن نقول في طمأنينة ، إن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، في القرون الوسطى ، كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الإسلامية مباشرة ، أو بالواسطة ، كما يشهد بذلك تاريخ حياة الفلسفة الرشدية في أوروبا .



٤ — وحين نتكلم عن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، نستطيع أن نجد الصلة غير الخفية بين حركات التجديد في حياة الكنيسة ، أو حركات

= المسيح من يد الكفار ، فاتمته إلى خلق التجارة الواسعة ، وتنمية الرفاهية الإنسانية ؛ هكذا أخذت الفلسفة المدرسية في حماية العقيدة على يد « ألبرت الكبير » « وتوماس الأكويني » ؛ فاتمته بأحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها .

راجع فيور يننينو في خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٧ ، فقرة ١٢٢ بتصرف يسير .

(١) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ص ٧٣ . وحين نسوق هذه الإشارة لا ننسى عداوة مثل « ريموندل » للفلسفة الرشدية ، لقوة تعصبه ودعوته إلى إنشاء جمعية عسكرية كبرى للسعى إلى إسقاط الإسلام ، ولكنه مع ذلك ، كان واسع الأفق . جعل معرفة الإسلام والعربية عدته في رغباته التعصبية ضد الإسلام ، الذي طاف أوروبا ، محرضا الملوك والباباوات فيها على حرب صليبية ضده ، ولعلنا نشهد اليوم هذه الظاهرة في استعانة الشرق بعمارف الغرب حين يكافحه وللحياة نواميس وسنن مطردة .

الخروج على الكنيسة ، وبين المؤثرات الاسلامية — من ثقافية وغيرها —
إذ كانت هذه الحركات الدينية صدى التقدم العقلي ، واليقظة الروحية ، التي
رأينا علاقتها في الغرب ، بالمؤثرات الاسلامية .

ففي الماضي غير القريب ، نرى الفرقة الفالدية (١) في الثلث الأخير من القرن
الثاني عشر ، تلك الفرقة التي كان ظهورها من الحركات القديمة ضد الكنيسة
وحالها الفاسدة ؛ فانتظمت مبادئها عناصر هامة ، مما قرره أخيرا الإصلاح
البروتستانتي في القرن السادس عشر (٢) .

ومما يلفت نظر الباحث في حال هذه الطائفة أنها نشأت في جنوب فرنسا
حيث امتد نفوذ الاسلام السياسي والروحي ؛ بل حيث توطن المسلمون
فعلا — أزمنة غير قليلة — على ما بيناه في « الفصل الأول » — وحيث
عرف الفرنسيون الاسلام ، أو اعتنقه أشخاص منهم ؛ ثم حيث تجاوز هذه
المنطقة أسبانيا الاسلامية ، أقوى مصادر التأثير الاسلامي على أوروبا ؛ وحيث
كان يهاجر اليهود من أسبانيا حاملين آثار الثقافة الاسلامية — على ما أشرنا
إليه كذلك في الفصل الثاني .

(١) نسبة إلى « بطرس فالدو » ، الذي كان تاجرا في ليون ؛ وقرر أن
الكنيسة الرومانية حائدة عن الانجيل ، وتجب إعادتها الى أصوله ، فتصدي
لذلك . ومن آراء هذه الطائفة : وجوب التعويل على الكتاب المقدس ؛ وأن
الكتاب يتضمن كل ما يكفي للنجاة ؛ وأنه لا مقتضى للاستغاثة بالقسديسين
والاستشفاع بهم في نوال النجاة ؛ كما يرون أن رياسة البابا يجب هدمها .. الخ
وإذا كان الكتاب الدينيون ينعتون هذه الشيعة بالمروق فأن من المؤرخين
من يقول : أنه لو اعتمد الباباوات هذه الطائفة كما اعتمدوا رهبنة الفرانسيكانيين
مثلا ، لكان « فالدو » يعد اليوم من القديسين ، بدل أن يحسب في المبتدعين .
وقد أسلفنا القول في أن ما يعد بالأمس مروقا ، يصبح في الغد إصلاحا .

(٢) الدرة النفيسة في شرح حال الكنيسة ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

أفليس ذلك كله مما تسهل معه ملاحظة أثر هذه الظروف المادية والمعنوية في تفكير طائفة الغالديين هذه، وحياتها؟ ولو أني لأحب المضى هنا في وصف هذا الأثر وتحديدده، مكتفيا بالإشارة إلى الآثار العامة، والصلة غير الضعيفة بين الحركات الكنسية والبيئة الإسلامية.



وبين حركات التجديد التي أفرتها الكنيسة، نرى الرهبانيتين العظيمتين الشأن في القرون الوسطى، وهما الرهبانية الفرنسيسكانية، والرهبانية دومينيكانية. تنسب أولاهما إلى «فرانشيسكو الأسيسي». الذي حدثناك عن رحلته إلى الشرق، ولقائه الملك الكامل، يحاول تبشيره بالنصرانية - فصل ١ فقرة ١١ - ، فقد كان لرحلته إلى الشرق أثرها في تأسيس تلك الرهبانية، وبتجاربه في التبشير بسوريا والمغرب، رجع يكرس نفسه لإعادة المسيحيين في أوروبا إلى الحياة المسيحية الحقيقية (١).

وتنسب الرهبانية الثانية إلى «دومينيكوس» الراهب الأسباني، مخترع ما يسمى في الكنيسة «بالفحص الشريف»؛ الذي عرف في التاريخ باسم ديوان التفتيش، وقد كان أول ما قام منه في مدينة طليطلة سنة ١٢١٦ م؛

وليس من الدقة أن نعز النظر عن أسبانية هذا الراهب؛ أو عما ظهر في هذه الرهبانية ورجالها من ميل مبكر إلى العلم، وحسبانهم حسابا كبيرا للمعرفة والدرس (٢) فلاسبانيتها بلا شك أثر في هذا كله.

على أنه قد ظهر من الرهبانيتين كثير من المفكرين والفلاسفة الذين ذكرنا آثقا، صلتهم بالبيئة الإسلامية مثل: ألبرت الكبير؛ والقديس توما الأكويني من الدومينيكانيين؛ والاسكندر الهاليسي؛ وروجر بيكون؛ ودنس سكوت، من الفرنسيسكانيين، وغير هؤلاء وأولئك.

(١) ج. مور: تاريخ الأديان ج ٣ ص ٣٠٩. ترجمة إيطالية.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١١.

وقد ذكرنا قريبا ملاحظة « رينان » عن علاقة الفرانكفون بالثقافة الإسلامية وتأثيرها .



ثم فيما بعد ذلك نرى فرقة مسيحية متطرفة في التسامح ، كانت تقول بوحدة الوجود ، تلك هي فرقة « إخوة وأخوات الفكر الحر (Fratelli e sorelle del libero Spirito) التي ظهرت في ألمانيا (١) العليا ، وسويسرا وتبدو لها علاقة بمبادئ الفيلسوف « أماريكو دي بينا » الذي استقى آراءه من التيار الأفلاطوني الحديث في الفلسفة الإسلامية (٢) .

وهذه الطائفة إلى جانب صوفيتها التي ذكرناها ، كانت تنفي كل ألوهية خاصة للمسيح ، إلى غير ذلك من آراء تسامحية حرة .

وهكذا نجد مظاهر الاتصال بين الحركات الكنسية والثقافة الإسلامية ، بما لا نطيل فيه أكثر من ذلك ، مطمئنين إلى أن الأثر العام لهذا الاتصال الذي قدمنا بيانه ليس خافيا ، بل هو من البيان بحيث يعد نفس القارى المنصف للقول بالتأثير الإسلامي الخاص .

(١) هذا ما أشرنا إليه في فصل ٢ فقرة ١١ ؛ عند الكلام عن صلة البيعة الألمانية خاصة بالثقافة الإسلامية .

(٢) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ — ودي بينا هذا فياسوف مدرسى كان أستاذا للاهوت توفى سنة ١٢٠٦ م . وقد كفرته الكنيسة وبددت جنته .

الآثار الخاصة

﴿ في مبادئ الإصلاح البروتستانتي نفسها ﴾

٥ — إذا قيل إن خصائص الحضارة الإسلامية ، والدين الإسلامي ، قد تسربت خلصة تقريبا إلى العالم اللاتيني (١) .
ثم إذا ما قيل أن الأدلة كافية في تبين مجرى النظر الفلسفي والديني ، أثناء انتقاله من الشرق إلى الغرب (٢) .
إذا ما قيل هذا وذلك من باحثين غربيين ؛ فإننا نقول بعد الذي بيناه :
إن مسالك هذا التسرب ، ومظاهر هذا الانتقال قد صارت معروفة جلية ،
وإننا نتقدم مطمئنين ، لنبين وصولها إلى أهم أصول الإصلاح المسيحي الذي
خلف المذهب البروتستانتي . وإليك البيان :

١ — أهم أصول الإصلاح ، والطابع العام له في جميع الأقاليم ، هو :
رفض السيادة الكهنسية ، سواء أكانت ممثلة في البابا ، أم في المجامع (٣)

وهذه الفكرة الإصلاحية قد ظهرت منذ الإصلاح الأول ، على يد
الفالديين ، في القرن الثاني عشر ، وقد استرعينا نظر القارئ - في فصل ٣
فقرة ٣ - ليقدر أثر البيئة المادية والمعنوية التي نشئوا فيها جنوبي فرنسا ،
وما يمكن أن تتأثر به من الاسلام .

بل نرى في عصر أقدم من عصر الفالديين بقرون ، أن « جربرت
دوفرن » وهو « البابا سلفستر الثاني » الوثيق الصلة بالثقافة الإسلامية ، والبيئة
الإسلامية في أسبانيا - وأن أمكن الشك في رحلته إليها - جربرت هذا قد
ثار ضد السلطة الكهنسية ، وهو يعد أعظم من كتب ضد الأساقفة (٤) .

(١) جويدودي روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٧
(٢) ١ . جيوم : تراث الاسلام ج ١ ص ٣١٨ من الترجمة العربية .
(٣) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ .
(٤) الخوري عيسى أسعد : الطرفة النقية في تاريخ الكنيسة المسيحية
ص ٢٠٩ .

ثم نجد وراء ذلك أن النقد الاسلامي لهذه السلطة الكنسية قوى شائع ، حتى ليتمثل في أناشيد العصور الوسطى ، ويتغنى به ؛ فصالح الدين الذي يذكر في الأناشيد الفرنسية واللاتينية لذلك العصر ، نراه في إحدى الروايات يناقش في الديانات ؛ وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عبادة البابا ، ومسألة الاعتراف (١) .

وفي الحق إنه يلاحظ أن فكرة بيع الغفران ، القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ، ليباع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولا مشهورة ، ونصوصا صريحة في آيات القرآن ، التي كانت مترجمة إلى اللاتينية واليونانية قبل الإصلاح بقرون (٢) ، والتي اتصل بها ولا بد في هاتين

(١) هنري دي كاسترو : الاسلام ص ١٤٥ من الترجمة العربية . ولقد كتب طبيب الملك فيليب أوغوست - ق ١٢ ، ١٣ - هجاء مؤلما للقسيسين سماه « الطب المقدس » . والقالديون الذين أشرنا الى صلتهم بالثقافة والبيئة الاسلامية ، كانوا في القرن الثاني عشر يسمون البابا « ضد المسيح » ، ويسمون الكنيسة الرومانية « بابل » .

(٢) ولئن كان القرآن يترجم في تلك العصور للرغبة في نقضه أو الرد عليه ، فأنا لانسى أن هذا الاتصال السلبي العنادي ، له أثره في تطرق الأفكار الى المعاند ، وتأثره بها لما نعرفه من وقع الفكر والآراء على الأعصاب ، وتركها آثارها فيها ، وانفعال النفس بها ، ولو بدأت صلتها بها في هذه الصورة من المقاومة والمعارضة . وتقدير هذا مما يجده الإنسان في خاصة نفسه ويشهده في انتقال الآراء ونواميس تفاعلها لو دقق النظر .

والآيات المناهضة لفكرة بيع التوبة ، وكنوز الصالحين كثيرة في القرآن منها : ما في (سورة فاطر ٣٥ - آية ١١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ، إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزي فأنما يتزكى لنفسه وألى الله المصير » . وما في سورة المدثر (٧٤) آية ٣١ : « كل نفس بما كسبت =

اللغتين غير قائلين من مثقفي تلك العصور ، الذين رأينا قوة ما يمتنون به من الأسباب إلى الثقافة الإسلامية العلمية ، والدينية .

ومن الناحية الفلسفية نجد الفكرة التي ترفض السلطة الكنسية في فلسفات كثيرة - من تلك التي كشفنا عن وثيق صلتها بالفلسفة الإسلامية - وهنا نريد أن نذكر منها فلسفات متأخرة قاربت عهد إنجاز الإصلاح المسيحي ، وأثرت فيه تأثيرا مباشرا ، وتلك هي فلسفة أوكام (Occam) وأتباعه مثل : ج . بيل (G. Biel) ود . أبي (D. Ailly) لقوة اتصال لوثر

= رهينة . وما في سورة ٢ - البقرة - آية ٢٨١ : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . وسورة ٣١ لقمان . آية ٣٣ : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ... » إلى غير ذلك من آيات في هذا المعنى ، كانت بين يدي الأوربيين العارفين باللاتينية واليونانية . بل قد سمعنا أن فقرات من القرآن كانت تقرأ في أوروبا بالعربية نفسها ؛ هذا إلى شروح إسلامية لهذه الفكرة عرفنا أنها وصلت إلى المسيحيين ، وكانت في مناهجهم ، حينما كانت الكنيسة تسرف في بيع صكوك الغفران ، واستغلال فكرتها في ذلك تأييدا لسلطتها .

و حين نسوق الشواهد على مبدأ « أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، ذلك المبدأ الذي لم يجنح القرآن إلى غيره ، يحسن أن نقول : إن العهد القديم مثلا لم يؤيد هذا المبدأ ذلك التأييد المطلق إذ ورد في التوراة المنسوبة إلى موسى ، في سفر التثنية : إصحاح : ٥ آية ٩ : ضد هذا المبدأ حين تقول : « لأنني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء ، وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني » ؛ وفي سفر حزقيال من أسفار الأنبياء - بعد موسى - إصحاح : ١٨ ، آية ٢٠ ، تأييد هذا المبدأ « النفس التي تخطئ هي تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والآب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » .

فتأييد الفكرة الأولى دون الثانية يحتاج إلى مرجح ؛ هو الإسلام على ما يبدو في غير تكلف .

بتلك الفلسفة ، إذ كان أساتذته في الجامعة أو كامبين (١) . وكان لوثر نفسه متأثراً بهذه الفلسفة ؛ إذ نراه حيناً وقع في أزمته الروحية الدينية ، يقرأ كتب « أوكام » وأتباعه السابقين (٢) .

وأوكام هذا كان — كما قلنا سابقاً — من الفرشيسكانيين ، الذين ذكرنا ملاحظة رينان في أنهم من أقوى أنصار الفلسفة الرشدية بأوروبا ، ومن ألد أعداء الكنيسة وسلطتها ؛ و « أوكام » هذا هو الذي قلنا إنه احتسب بلويس ملك بافاريا ، مع مارسيليو دي بادوفا ، وقال له أوكام كلمته المشهورة « دافع عني بسيفك أدافع عنك بقلمى » (فصل : ٢ — فقرة : ١١) .

وتلك الصلة القريبة بالفلسفة الإسلامية تكفي أجمالاً ؛ لكننا نجد في القسم السياسي من الفلسفة الرشدية ، أن فيلسوف قرطبة حين يعد حكومة الخلفاء الراشدين أفضل أنواع الحكومة ، يعتبر أن شر الظلم ظلم رجال الدين ، فيفضل من حكومة الخلفاء الراشدين ، تلك الحكومة التي لا تعتمد لنفسها شيئاً من السلطان الديني على الأشخاص ، ولا تحتفظ بشيء من الامتياز ، أو الوساطة أو الفضل لهؤلاء الخلفاء ؛ وينقم على ظلم رجال الدين معتبراً إياه شر الظلم (٣)

(٢، ١) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨ — دائرة المعارف الإيطالية الجديدة مادة لوثر .

(٣) يتصل بهذه الفكرة الإصلاحية في نبذ السلطة الدينية فكرة المصلحين ، في عديمي المسيحيين قسسا ، لهم حق الظهور بين يدي الله ، والصلاة للآخرين — مور : تاريخ الأديان ج ٢ — ص ٣٥٠ —

وهذه الفكرة في استخلاص الدين من رجال الكنيسة ورده الى العوام ، وجعله حقاً لكل أحد لا حكر فيه لفرد أو طائفة ؛ هذه الفكرة ليست إلا صدى الأثر العام للاتصال بالاسلام شرقاً وغرباً ، ذلك الأثر الذي وصفناه في الفصل الثالث . فقرة ٢ ، ٣ ؛ ثم هي النتيجة المباشرة لإطراح سلطة =

وهكذا نرى أن أنكار السلطة الشخصية الفردية في الدين ، وعدم الاعتراف لأحد بها ، من الخصائص الإسلامية ، التي تسربت إلى أوروبا على لسان المسلمين ، وفي تعليم دينهم ، وعمل خلفائهم الأولين ، بعد ما ترجم من عبارات قرآنيهم وفيما انتقل من فلسفتهم ؛ وفي تحريرها للعقول ؛ إلى آخر ما بيناه في هذه الفقرة ، وكشفنا به عن مسالك ذلك التسرب ، واضحة قوية الاتصال .

٦ — الفكرة الثانية من أصول الإصلاح : — أنه يكفي للنجاة تصحيح العقيدة ، فالنجاة منحة من الله ، يتلقاها كل إنسان من ربه رأساً بواسطة العقيدة دون العمل التوسطي للكنيسة في ذلك ، إذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس (لوثر) (١) .

وهذه الفكرة تتضح بأيسر التأمل صلتها بالفلسفة ، وما يتحدث من مذاهبها عن الروح وارتباطها بالملا الأعلى ، وهنا يتسع مجال التأثر بالتفسيرات الفلسفية الإسلامية لمثل هذه الأفكار .

على أنا لانقف في هذا عند حد الاتصال العام الذي ذكرناه ، ولا نكتفي بالاستنباط النظري لهذا التأثر ؛ بل نجد في أقلام المؤلفين الأوربيين ، حلقات تكون سلسلة ذلك الاتصال ، وتكشف عن خطوات الانتقال .

نراهم يقولون في صراحة ، أن نواة هذه الفكرة الإصلاحية ، إنما توجد في تصوف إيكهارت الألماني (٢) ، حين يطبق على اللاهوت (٣) ؛

= البابا ، وتسفيه فكرة الوساطة بعامة — مما بينا في هذه الفقرة طريق وصوله عملاً وفلسفة إلى البيئات المسيحية من المصادر الإسلامية . وكون هذه الفكر مبادئ إسلامية أصيلة ، لا يحتاج إلى استدلال ولا استشهاد .

(١) مور : المصدر السابق ج ٢ . ص ٣٤٦ .

(٢) إيكهارت هذا هو الذي ذكرنا في الفصل الثاني : فقرة ٧ ؛ تأثره بابن سينا وسنذكر هنا ، تأثره بالغزالي بشهادة كتاب الأوربيين أنفسهم في تاريخ الأديان وتاريخ الفلسفة . وهو : المعلم إيكهارت ، الذي ولد حوالي سنة ١٢٦٠ م ، في ستراسبورج ، وله تلمذة لألبرت الكبير ، كما درس وعلم في باريس ، واشتهر تبشيره في أنحاء ألمانيا ، وتعرف مدرسته الفلسفية باسم « المدرسة الصوفية الألمانية » . وهو أحد رهبان الرهبنة الدومينيكانية .

(٣) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣١٠ .

إذ هو يقول : إن الروح الانسانية تفحة من الأزل ، وشرارة إلهية ، فلا ينبغي أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصال السريع بينهما مباشرة . (١)

وإيكهارت في هذا القول : بأن الروح الانسانية قبس إلهي ... الخ ، يتصل بعلم النفس الديني للغزالي (٢) ، المتصوف الاسلامي الكبير ، الذي بينا اتصال الغرب به اتصالاً مبكراً ، ووصفنا شهرته عند الأوربيين ، ووجود آرائه في كتب تعد أصولاً في النصرانية ، بل حصناً لها . (٣)

* * *

(١) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٩

(٢) ج . مور : تاريخ الأديان . ترجمة إيطالية ج ٢ ص ٣٠٦ .

ورأى الغزالي في هذا مما بينه في أكثر من موضع من كتبه المتعددة ؛ وألى القاري طرفاً مما ورد في كتابه « معارج القدس ؛ في مدارج معرفة النفس » طبع القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ — إذ يقول في ص ١٠٣ منه ما نصه :
« وألف كل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، وأن كان بينها تفاوت كثير ؛ لأنه أمر رباني شريف كما ذكرناه ، فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف ؛ وأليه الإشارة بقوله تعالى « أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » إشارة إلى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرضين والجبال صار بها مطيقاً لحمل أمانة الله تعالى ؛ وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد ؛ « وقلب كل آدمي مستعد للامانة ومطيع لها في الأصل .. » وقد قال في ص ١٦ من هذا الكتاب ؛
« ونحن حيث أطلقنا في هذا الكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل »
« فنريد به النفس الانسانية التي هي محل المعقولات » . وعلى هذا جرى حديثه هنا عن القلب .

(٣) تقرأ في كتاب تراث الاسلام ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، من الترجمة العربية مانصه : « ولمباحث هذا المؤلف — الغزالي — ونتائج أشباه كثير =

على أنى من جانب آخر ، ألمح صلة بين هذه الفكرة في كفاية تصحيح العقيدة وبين فكرة أخرى ، هي مسألة « الإيمان والعمل » ، وضرورة تقدم الإيمان ، حتى يوجد العمل الصحيح ... الخ ؛ لكنى لا أعنى هنا ببيان مناشئ الفكرة كلها ، بل حسبنا أن نكشف جانباً واضحاً من صلتها بفكرة إسلامية ، أضح انتقالها من الشرق إلى الغرب ؛ كما تبين طريق ذلك الانتقال ، ولعل متابعة البحث تهديني - إن شاء الله - إلى استيضاح طريق التأثير بفكرة الإيمان والعمل .

* * *

٧ - الفكرة الثالثة من الفكر الإصلاحية :

أن كلمة الله هي الضابط الوحيد : فالسلطة إنما هي للكتاب المقدس وحده ، وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع ، والآباء ، والتقاليد (١)

= في كتاب « الخلاصة الفلسفية » الذي ألفه القديس توما ؛ وهذه حقيقة يصعب أن تجد لها أكثر من تفسير واحد ؛ ثم تقرأ في ص ٣٢٠ منه : وإن في وجود مذاهب إسلامية الأصل في كتاب الخلاصة الفلسفية للأكويني - وهو حصن المسيحية الغربية لدحضاً كافياً لاتهام العرب بالجدب ، ورميهم بالفقر إلى الابتكار » ؛ وفي ص ٣١٩ قبل ذلك يقول عن العرب ما نصه :

« فقد كان لهم الفضل في استبقاء نور العلم وضاء ؛ ومهما قيل في ضآلة حظهم في تقدم الفكر الفلسفي البحت ، فإن خدمتهم للإلهيات كانت على أعظم جانب من الأهمية » وأنت حين تقرأ هذه النصوص تجد قولنا بأخذ أفكار إصلاحية عن مصادر إسلامية ، على يد رجال إسلاميين ، ليس بدعا من القول ولا افتياتاً ، بل هو حقيقة ، تؤيدها النظرة الأوروبية العلمية ؛ وإن كنت لم أجد من ارتقى بها ، حتى انتهى إلى القول صراحة بهذه الصلة بين الإسلام وإصلاح المسيحية ، في الأفكار الدينية بخاصة .

(١) ج . مور : المصدر السابق ج ٢ - ص ٣٥٥ .

والدرة النفسية في شرح حال الكنيسة ص ٣٥٢ .

ونلاحظ أن هذه الفكرة في الرجوع إلى المصادر الأولى ، والأصول
المباشرة للدين ، هي فكرة شديدة الملاءمة لروح التجديد الديني ، وأليق
ما تكون ، بمحاولة إصلاح ما أصله الوحي والتوقيف ؛ وفيها مظهر للمحافظة
يضفي على المجددين نوما من الثقة ، ويبعد الريبة ؛ إذ يظهر عملهم في صورة
إبعاد الشوائب ، وتنحية الزوائد التي دخلت على الأصل ؛ ولهذا نجد في تاريخ
الإصلاح الديني - مسيحيا أو إسلاميا أو غير ذلك - أن هذا الاتجاه مما يجتمع
المصلحون والمجددون على السير فيه .

كما نجد في فرق الأديان الثلاثة - اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام -
من يلتزم القول بهذا ويناضل عنه (١) . فهي خطوة في التفكير مكررة ،
ومظهر من التجديد مشترك .

على أن هذا لا يكفي في تعليل ظهور الفكرة في بيئة بعينها ، أو دين بعينه
في زمن بعينه ؛ بل لا تزال محتاج إلى معرفة عوامل التوجيه إليها ، وأسباب
ظهورها المباشرة .

وهذه الفكرة في التعويل على الإنجيل ونبذ ما عداه ، فكرة قديمة ،
قال بها الفالديون في القرن الثاني عشر ، وقد قدمنا - فصل ٣ ، فقرة ٤ -
ما لبثت هذه الفرقة من صلة عملية : وصلة عقلية بالإسلام ؛ مع مجاورتها
القريبة لأسبانيا الإسلامية ، إذ ظهرت في جنوبي فرنسا كما سبق القول .



على أنا نرى من حق التاريخ ، أن نشير في بيان مسارب هذه الفكرة
إلى المسيحيين الغربيين لما مهدنا ببيانه - فصل ٢ : فقرة ١٠ - من أمر
الحركة الظاهرية في الأندلس ، وتمثيل ابن حزم لها هناك ، وعمله على أخذ
العقائد من الكتاب وصحيح السنة فقط . كما نشير مع ذلك إلى حركة تشريعية
تحررية ، قاومت التقليد ، واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الإسلامية

(١) من هذا في اليهودية القراءون ، وفي المسيحية الفالديون ، والبروتستانت
وفي الإسلام فرق متعددة في عصور مختلفة وبلاد مختلفة .

اعتمادا لا نكاد نجد له نظيرا في تاريخ التشريع الإسلامي ؛ تلك هي الحركة التي قامت بعد ابن حزم ، في عهد المنصور الموحدى ، الذي كان شديد الإعجاب به (١) . واتخذت شكلا رسميا ، في عهد المنصور أبى يوسف يعقوب ابن أبى يعقوب ، الذى حكم المغرب والأندلس ما بين سنتى ٥٥٤ هـ - ١١٥٩ م ، ٥٩٥ هـ - ١١٩٩ م ، فقد أصدر أمرا برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتنون إلا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب ، والحديث والإجماع ، والقياس (٢) .

وتشرح لنا فكرة المنصور فى الرجوع إلى الأصل الأول ، محاورة بينه وبين الفقيه المالكي ، الشيخ أبى بكر بن الجرد ، الأشيبلى زعيم وقته « ٤٩٦ هـ - ٥٨٦ هـ » ؛ يقول فى روايتها : لما دخلت على أمير المؤمنين ، أبى يعقوب ، أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه ، كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبابكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ، أرايت يا أبابكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ؛ فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ . فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ؛ فقال لى وقطع كلامى : يا أبابكر ، ليس إلا هذا ، وأشار الى المصحف ؛ أو هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ؛ أو السيف (٣)

(١) ينقلون أنه وقف على قبره وقال : كل العلماء عيال على ابن حزم . وعلاقة ابن حزم وحرريته ، بتلك الحركة الموحدية فى مقاومة التقليد تبدو ظاهرة واضحة .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٢ . ط . بولاق .

(٣) أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى المراكشى : المعجب فى تلخيص

أخبار المغرب : ص ١٨٥ ط مصر سنة ١٣٢٤ هـ

وقد حكم القوة فعلا ، إذ تقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأى ،
والخوض فى شىء منه ، على نحو ما سبقت الإشارة إليه ، وتوعد على ذلك
بالعقوبة الشديدة (١) .

والفكرة فيما يروى (٢) قد شغلت أباه من قبله : أبى يعقوب يوسف بن
عبد المؤمن ، وشغلت جده عبد المؤمن بن على ، ولكن ظهر فى أيامه ما خفى
فى أيام أبيه وجده ، وأظهر هو من الجد فيها ما لم يظهره .

ويقال أن مقصدهم فى الجملة كان نحو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب
مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث (٣) .

والبحت فى منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقة فى تاريخ
التشريع الإسلامى عامة ، وتاريخ الحياة العقلية فى الأندلس بخاصة ؛ وإنما
نكتفى هنا بالإشارة إلى موضع الشاهد على ما قصدنا إليه من قوة فكرة
الرجوع إلى الأصل فى البيئته الإسلامية ؛ خلال القرن الثانى عشر الميلادى ،
واتخاذها شكلا رسميا بتدخل الحكومة .

وإنك لترى حتى فى المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة ، تشابها بين الغرب
الإسلامى ، والغرب المسيحى ، يلفت النظر ويشير الانتباه ؛ فأبو يوسف
المنصور يأمر بأحراق كتب المذهب ، بعد أن مجرد ما فيها من حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ؛ فينفذ ذلك ، وتمحرق منها جملة فى سائر
البلاد ، كدونة سجنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادى أبى زيد ، ومختصره ،
وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ،
ونحو نحوها (٤) . ويحدث المراكشى المؤرخ ، الذى كان شاهد عيان لهذه

(١) المصدر السابق ص ١٨٤

(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ س ١ ، ١٠

(٣) » » ص ١٨٤ ، ١٨٥

(٤) » » ص ١٨٤

الحركة ، أنه شهد وهو بفاس أحمال الكتب يؤتى بها فتوضع ، ويطلق فيها النار .

وهذه النار قد التهمت في الغرب كثيرا من الآراء والمفكرين كذلك ، سواء على يد الرجال المقاومين للإصلاح ، أو على يد الداعين إليه كما أشرنا إلى بعض ذلك ، في تعليقات من هذا البحث .

* * *

والفكرة الإسلامية في الرجوع إلى الأصل الأول قدراجت ، حتى وصلت آثارها إلى المشرق ؛ وقال ابن خلكان (١) بعد ما روى الخبر السابق عنها ما نصه : —

« ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا بالبلاد ، وهم على ذلك الطريق ، مثل أبي الخطاب بن دحية ، وأخيه أبي عمرو ، ومحبي الدين العربي ، نزيل دمشق وغيرهم » .

وأثر البيئة الأندلسية في التفكير الديني المسيحي وغيره مما تكرر القول فيه ، وسبقت الإشارة إلى اطلاع مثل بطرس الفيترابي على النظريات الدينية والإسلامية فيها ، وإلى إنشاء مدارس التبشير في أسبانيا الإسلامية نفسها ، وإلى إنشاء الجامعات العلمية المسيحية فيها على يد رجال من علماء المسلمين أنفسهم (٢) . فالتأثر بهذه الفكرة الرسمية الرائجة ليس فيه شيء من البعد ، وهي فكرة واضحة الصلة والارتباط بالفكرة الإصلاحية ، حين ترى الأخذ بالإنجيل ، والوقوف عنده فقط ، واطراح ما وراء ذلك من آراء .

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٤٣٢ ط بولاق .

(٢) اقرأ قول : ١ . جيوم ، في تراث الإسلام ج ١ ص ٢٣٢ من الترجمة العربية ، « وكانت أول جامعة عربية في أوربا مدينة بوجودها للعلوم الإسلامية ، ذلك أن ألفونس الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨١) قد ساعد رجلا ، اسمه ابوبكر الرقوطي ؛ وكان أحد أعلام العلم في عصره ، فبنى له مدرسة ، قام فيها بتدريس العلوم في شتى صورها للمسيحيين ، واليهود ، والمسلمين » . ولعلنا نستطيع أن نعرف عن الرقوطي هذا أوضح وأكثر مما يقولون عنه في مثل هذه الفقرة القصيرة .



٨ — ويتصل بهذه الفكرة في الاعتماد على الكتاب المقدس ، فكرة الإصلاح المسيحي في تفسير الكتاب ، ومن له حق التفسير . وقضية التفسير هي هنا صلب المسألة (١) .

ورأى الإصلاح فيها أن لكل مسيحي الحق في التفسير (Tutti

crisiani hanno lo stesso diritto d'interpretarle — la parola di Dio)

ولعل مسألة التفسير أو التأويل هذه ، ليست قديمة قدم غيرها من موضوعات الإصلاح ، التي كانت سبب اصطدام مع الكنيسة ؛ فلم أرها في مسائل الفالدين الذين بكروا بالدعوة إلى الإصلاح ، بل نرى الصيغة العملية أغلب في المسائل المبكرة . أما هذا التفسير فخطوة متأخرة ، تلت عمل الفلسفة المدرسية — المتصلة والمتأثرة بالبيئة الإسلامية — مع الدين حين تلاقيا ، فأثيرت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأخذت حيزها الواسع في تلك العصور الوسطى . وإذا ما تحدثنا عن التوفيق بين الدين والفلسفة ، وما تلاه من تفسير النصوص المقدسة ، وقفنا لنرى الأثر الإسلامي في هذه المسائل ، فذكرنا مثل جهاد ابن رشد في هذا التفسير ، وإفراده إياه بالبحث في كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ؛ مع تعرضه له في غير ذلك من كتاباته سعيا إلى رفع ما يظهر من مناقضة بين العلم والدين ، حينما تكون ظواهر عبارات الوحي مثيرة لشيء من هذا .

والرغبة في التوفيق ، والعمل عليه ، قد أخذت دورا من حياة الفلسفة المدرسية كما أشرنا إلى ذلك — فصل ٢ فقرة ٧ وفصل ٣ فقرة ٣ مع هامش ١ — ؛ والعلاقة بين كبار العاملين على هذا التوفيق في الغرب وبين المصادر الإسلامية ، مما يقين كذلك جليا فيما سبق ، وتجد منه على سبيل المثال ما يذكره كتاب الغربيين عن العلاقة بين القديس توما وغيره من مفكري

(١) مور : المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٤٥ .

الغرب ، وبين ابن رشد ، وغيره من مفكرى الاسلام ، واستفادة هؤلاء من تلك المنابع الاسلامية (١) .

ولسنا بحيث نقصد هنا إلى تاريخ حركة التوفيق في الغرب ، وإنما نريد أن نقول : إن التفسيرات الرافعة للتناقض الظاهر ، كان يستطيعها أمثال ابن رشد بأنفسهم دون صعوبة كبيرة ؛ ولم يكونوا يجدون من ينكر عليهم هذا الحق في التفسير — وإن خولفوا أو أنكرت عليهم آراء بعينها في هذا التفسير — على حين كانت البيئة المسيحية التي اقتفت أثر المسلمين في هذا ، تجد الحائل القوي دون المضى في سبيلها ، لأن الكنيسة وحدها ، هي التي كانت تنولى الفصل في تفسير نصوص الإنجيل (٢) .

على أن هذا الحق في التفسير كما أشرنا قريباً ، يتصل بفكرة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده وطرح ما عداه ؛ ثم أنه قدر مكل لفكرة رفض السلطة الكنسية ، ورفض ساطتها في الغفران ، أذ لا جدوى في ذلك كله حين يبقى حق تفسير الكتاب المقدس للكنيسة وحدها ، تستخرج من تفسيراتها الخاصة للكتاب ما تستبقى به هذه السلطات أو أكثر منها .

وليس من القليل الأثر في هذا ما عرفه الغربيون — المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى في الإسلام — من نظام التفسير عند عامة المسلمين لكتابهم المقدس ، وتحكيم الأصول الأدبية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحد بعينه في ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة يتلقى منها التفسير .

(١) اقرأ في هذا فوق ما تكرر ذكره من مصادر تاريخ الفلسفة والأديان ما ورد في الجزء الأول من تراث الاسلام — ترجمة عربية — صفحات ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٧ وغيرها .

« وفي خلال هذا يقرر الكاتب أن ابن رشد بهذا الجهد في التوفيق بين الدين والفلسفة ، قد ترك للعلم المسيحي أكثر من التعليق على أرسطو .



٩ — المسألة الخامسة مما تأثر فيه الإصلاح بالاسلام ، مسألة سر الشكر
أو « الانخارستيا » eucarestia (١) وإنكار الاستحالة الحقيقية ، مع
الاعتقاد بوجود المسيح في القربان إلى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن
تكون استحالة حقة .

وهذه المسألة قديمة كذلك . قد نظر فيها بطرس اللومباردى (Pietro
Lompardi) منذ القرن الثاني عشر ، وقال بها فعلا « أوكام » و « أيلي » . وعن
هؤلاء أخذها ، لوثر ، الذى وصفنا صلته بهم — فصل ٣ فقرة ٥ — فإذا

(١) هي مناولة كنسية تمثل العشاء الأخير ، الذى تناوله المسيح مع تلامذته ؛
وتختار القرايين فيها من أفضل المقدم من خبز وخمر ، يعتبر الخبز جسد المسيح ،
ويعتبر الخمر دمه ؛ ولها رسوم اختلفت باختلاف أدوار حياة المسيحية ؛
وكان من أسباب انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وحرمان
كل واحدة منهما لصاحبتهما ، استعمال الفطير في هذه المناولة بدل الخبز .
ويلاحظ أن الخلاف حول هذه المناولة ثار في الغرب منذ انتقلت إليه
عدوى البحث العقلى الدينى من الشرق ؛ فنذ القرن العاشر بحثوا في كيفية
وجود جسد المسيح ودمه ؛ وأنكرت استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛
وقيل أنهما يبقيان خبزا وخمرا بسيطين وماهما إلا رسم لجسد المسيح ودمه فقط .
بل ثار الخلاف في القرن الثانى عشر حول أن جسد المسيح ودمه المتناولين :
هل هما قابلان للفساد كما كان جسد المسيح قبل الصلب ؛ أو هما غير قابلين للفساد
كما كان جسده بعد الصلب ، وهو خلاف يبدو غريبا .

ونما الخلاف بشأن هذه المناولة منذ ظهرت ملامح الإصلاح المسيحى
فقويت فكرة أنكار استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ حتى كان رأى لوثر
هو ذلك التوفيق الفلاسفى الذى شرحناه ؛ وأن المسيح يوجد إلى جانبهما دون
أن يتحولا الى جسده ودمه .

وقدر أن الفكرة فلسفية الأصل ، نشأت في تلك البيئة المدرسية ، التي طانت التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ وقال بها — كما رأيت — أولئك الفرنيشيسكانيون ، الذين عرفوا بنصرة الفلسفة الإسلامية ومن كل هذا يظهر قرب هذه البيئة إلى التفكير الإسلامي وتأثرها .

* * *

فلنذكر في هذا المقام أن الفلسفة والدين في الإسلام أو الفلسفتين ، العامة والكلامية ، قد تعارضت نظراتهما في مسألة الأسباب والمسببات ، فكان طريق التوفيق بينهما في ذلك ، طريقا ينتهي إلى مثل هذا التوفيق ، بين النظرة المسيحية الدينية ، والفلسفة المسيحية المتدينة ، في مسألة سر الشكر التي نتحدث عنها .

في هذه المسألة المشابهة لمسألة المسيحية ، أي مسألة الأسباب والمسببات بين الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، قال المنفلسفة بالسببية المحضة ، وأنكرها المتدينون ، ولم يروا لها تأثيرا ، فرأى المتكلمون أن ليست الأسباب إلا أسبابا عادية ، ووجود المسببات عندها إنما هو بخلق الله لها (١) .

(١) المسألة معروفة في البيئات الكلامية ؛ لكنني مع ذلك أضع بين يدي القارئ طرفا مما ورد عنها في كتاب التهافت الذي كان معروفا راجعا عند الأوربيين في القرون الوسطى ؛ فقد عقد الإمام الغزالي فصلا فيه ، عنوانه « مسألة الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ... » وفيه يقول : « المقام الأول : أن يدعى الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له ؛ وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن ، والتفرق في أجزائه ، وجعله حراقا — كغراب ما يقع فيه النار عند القدح — ورمادا هو الله تعالى ، أما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ؛ فأما النار فهي جماد لا فعل لها ؛ فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم =

وقد كانت هذه المسألة مثار المشادة القوية بين ابن رشد والمتكلمين في رده على تهافت الغزالي ؛ وكلاهما مثل جانبا من جانبي التفكير ، ونحو .
نعرف أن الغزالي قد كانت آثاره بين يدي الغربيين في سنين مبكرة من القرن الثاني عشر الميلادي ؛ ونعرف أن تهافته قد ترجم إلى اللاتينية ، واقتبست منه أفكار بذاتها في مؤلفات مسيحية ، على ما سبق بيانه ؛ كما نعرف أن الفلاسفة الرشدية قد سادت وتحكمت في أوروبا عهودا طويلة ؛ فالجانبان من الرأي وحججهما . قد كانا في أيدي فلاسفة الغربيين بلا مرء ، دهرًا طويلا .
وإذا ما قدرنا كل هذا فلا بعد في أن نقول : إن هذا الحل الفلسفي بعينه في مسألة الاستحالة ، قد جاء محاكاة للحل في مسألة الأسباب . وهي فلسفية أيضا وأن نجد القرب الشديد بين هذه الفكرة الفلسفية في مسألة الاستحالة الدينية للخبز والنبيد إلى جسد المسيح ودمه ، والفكرة الكلامية في مسألة الأسباب الفلسفية ؛ نعم نجد قريبا يبرر الاطمئنان إلى استنتاج أن الفكرة في وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا إلى جسده ودمه ؛ قد تأثرت بفكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابها ، لا أنها توجد بها نفسها . الفكرة هي الفكرة ، والتزاع يشبه التزاع ، والمتنازعان هما العقيدة والفلسفة . والتوفيق الإسلامي ديني يريد إرضاء الفلسفة ، والتوفيق المسيحي فلسفي يريد أن يفهم الدين ، أو يرضيه ؛ والتوفيق الغربي متأخر عن التوفيق الشرقي بوقت طويل ؛ وقد عرف اللاحق السابق .

* * *

= دليل 'إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به . إلى أن يقول بعد ذلك « فقد تبين أن الموجود عند الشيء لا يدل على أنه موجود به » هـ . من ص ٦٥ — ٦٦ :

تهافت الفلاسفة ؛ طبع القاهرة سنة ١٣٢١

وقد ناقش ابن رشد هذا الفصل في ص ١٢٢ وما بعدها من تهافت

التهافت — طبع القاهرة مع تهافت الغزالي —

١٠ — المسألة السادسة من نواحي التأثر : مسألة قديمة ، ظهر بها مذهب مسيحي قديم ، منذ عصور مبكرة ، وأقرها الاصلاح وسار عليها ؛ تلك هي مسألة الصور ؛ إذ قال المذهب الإيكونوكلاستي (Iconoclasti) ، في القرن الثامن الميلادي ، بإبطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل

إلى تدنيسها وتحطيمها ؛ ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على إبطال عبادة الصور وهذا المذهب قديم الصلة بالاسلام في الشرق — ولو أن فكرته نفسها أقدم ظهورا من الاسلام — ؛ والعلاقة بين ليون الثالث الأيساوري مكسر الأصنام ، الذي ألقى سلام الكنيسة ، وأظهر الفكرة في عنف ؛ وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة (١) . وفي تعليل عمله ضد الصور ، يقول كاتب كنسي — هو الخوري عيسى أسعد صاحب كتاب الطرفة النقية — : أن ليون فعل ذلك لأسباب سياسية ، إذ رغب في التقرب إلى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها في ذلك العهد المسلمون في ديارهم .

ولا يعنيننا كثيرا أن نعمل لترجيح أحد الاحتمالين في هذا المكان ، فكلاهما كاف لإيضاح أن أقوى حركة عرفها تاريخ المسيحية ضد عبادة الصور كان لها بالاسلام مثل ذلك الاتصال في نشأة القائم بها — ليون الثالث الأيساوري (Leone III l'isaurier) إمبراطور القسطنطينية — وفي تفكيره . والحركة الاسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل ، هي التي قام بها الخليفة

(١) يتحدث ابن الأثير في الكامل — ج ٥ ص ١٠ وما بعدها ط القاهرة — بأن ليون هذا جاسوس للعرب ، وأنه جاء سليمان بن عبد الملك فضمن له فتح الروم ؛ فكانت غزوة مسلمة للقسطنطينية التي يفصل ابن الأثير خبرها في هذا الموضوع ويبين كيف انتهى الأمر بتعمليك الروم ليون هذا عليهم إذا صرف المسلمين ، وأنه احتال لذلك ، وبعد هذا ببضع سنوات قام بحركته في تحطيم التماثيل وإبطال عبادتها ؛ تلك الحركة التي تسكاد تكون أقوى ما عرف في تاريخ مقاومة التماثيل بالكنيسة .

الأموي يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م؛ — وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦ م —؛ إذ كتب يزيد إلى حنظلة بن صفوان وإلى مصر، أن يكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه (١).

ويذكر صاحب الطرفة النقية الآنف ذكره في سبب قيام يزيد بن عبد الملك بهذه الحركة، أن حاخاما يهوديا أغراه بإصدار أمر يحظر فيه التصوير لكي لا يكون للمسيحيين ميزة على كنيس اليهود، ففعل؛ لكن أمر يزيد على ما يرويه صاحب النجوم الزاهرة لا ذكر فيه للتصوير أو الصور، والخليفة يزيد في غنى عن أن يحرض على هذا تحريضا خاصا، سواء بشأن الصور أو التماثيل، والأمر في الأخيرة أشد؛ نعم لا بد أن يكون هناك سبب مباشر، دفع إلى إصدار هذا الأمر الخاص بكسر التماثيل؛ ولكن ليس يجب أن يكون المحرض من غير البيئة الإسلامية، الذقة على ذلك دائما.

وعلى كل فالمؤرخ لا يغفل في سهولة صلة ما بين عمل يزيد، وعمل ليون في وقت متقارب، لا يزيد الفرق فيه عن بضعة سنوات، بعد ما عرفت صلة ليون القوية بالمسلمين، ولحظها كاتب كنسى.



تلك مسائل مما تجلت فيه الصلة بين الإسلام عقيدة وعملا وتفكيراً، وبين البيئات الإصلاحية المسيحية في أوروبا؛ وأكثرها مما تبين فيه طريق الاتصال بعبارات الكتاب الغربيين أنفسهم.

وفي هذا ما يكفي للتمهيد للفكرة، ولقت نظر علماء تاريخ الأديان إلى استكمالها، بالدرس والتنقيب في حياة الدينين. وما يصل طماعيتي في متابعة هذه الدراسة واستيفائها.

(١) ابن تفرى بردى: النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ طبع دار الكتب الملكية.

وإذا كان الأستاذ الفريد جيوم يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام في الفلسفة واللاهيات ما نصه . — « وسوف نرى عند ما تخرج إلى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوروبية ، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأننا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى الآن » .

فإني لأقول : سوف نرى عند ما تتجه الرغبة العلمية إلى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة وإخلاص ، أن أثر الاسلام في حياة أوربا الدينية ، لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية ، والعلمية ، والفنية .

خاتمة

كان لهذا الموضوع عند الغربيين سواء في مصر أو أوربا وقع لافت ، حتى لقد تقدم إلينا في حفلة افتتاح المؤتمر ، بمدينة بروكسل أعضاء الوفد الإيطالي ، يسألون عن الوفد المصري ، ومن سينتكم في موضوع « الاسلام والاصلاح البروتستانتي » مظهرين اهتمامهم بالموضوع .

ولقد تلطف الأستاذ ه . ماسي (H . Massi) الأستاذ بجامعة باريس ، والذي اختير لرياسة القسم الإسلامي بالمؤتمر ، فسأل بعد إلقاء خلاصة الموضوع ، عن طبعه ، ومتى وأين يكون ؟ وطلب أن أرسل إليه نسخة عربية عند ما يتم ذلك . إذ هو لا يعرف الإيطالية التي كتب بها البحث ، على ما أظن . ولعل في هذا الاهتمام بالموضوع ما يرجع إلى شيء من الدهش لجذته ، أو ما يرجع إلى تشوف العصبية الدينية ، لما يمكن أن يقال فيه .

فأما الجدة فنعم . وأما العصبية فأحسب أن الله قد وقى من خطرهما على الحق . ويهمني أن أؤكد في الختام ما قلته في البدء من : أن البحث العلمي التزيه ، هو الطلبة الأولى والأخيرة فيما كتبت ؛ وأرجو أن يشعر القارئ ممي بهذا ؛ وأن أكون قد وفقت إلى التزام ذلك دائما .

وأرى من الخير ، أن أشير إلى حادث يسير الخطر ، كبير الأثر ، يمس هذا الموضوع في مصر ؛ ويتصل بفهمنا للأمانة العلمية ؛ وتقديرنا لها . ذلك أن الحديث عن موضوع هذا البحث ، واختياره ليقدم إلى المؤتمر ، كان قد تناثر بمصر منذ وجهت الدعوة إليها ، حوالى نهاية ١٣٥٣ هـ - ابريل سنة ١٩٣٥ م وذكرت إذ ذاك أن هذا الموضوع ، يشغل فكري منذ نحو عشر سنوات ؛ أيام كنت في روما ، ورأيت نسخة من ترجمة القرآن الكريم ظهرت حوالى عهد الإصلاح الديني ؛ وقيدت ذلك في مذكرات عامية محفوظة .

في تلك الأثناء - أواخر سنة ١٣٥٣ هـ - كانت مطبعة المنار ، تخرج طبعة سابعة من رسالة التوحيد ، للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ؛ وقد اعتاد الناشر ، وضع عناوين فرعية من عنده في رؤوس الصفحات ، تبين محتويات الفصول ، كما صرح بذلك في صفحة ١٦٦ من الطبعة السابعة نفسها ؛ وكأرى من حقه أن يعلق على الرسالة في هامش الصفحات ، تعليقات من عنده .

ففي الطبعات المتقدمة على هذه الطبعة ، كان يضع بين عناوينه الفرعية للفصل الخاص بانتشار الإسلام في آخر الرسالة ، عنوانين : هما « الحروب الصليبية ، واستفادة أوربا من المسلمين » و « استفادة أوربا من الإسلام » . لكنه في الطبعة السابعة التي أرخها بعام ١٣٥٣ هـ ، استغنى عن هذين العنوانين ، بعنوان جديد نصه : اقتباس الإصلاح الديني في أوربة من الإسلام - ص ١٩٤ ط سابعة - وورد في الرسالة تحت هذا العنوان ما عبارته « ولم يكن بعد ذلك إلا قليلا من الزمن ، حتى ظهرت طائفة منهم تدعوا إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته ، وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد (١) إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام ،

(١) هنا علق الناشر في الهامش بما نصه « هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الانكليز والأمير كان » ؛ وهذا التعليق أيضا جديد في هذه الطبعة السابعة لا يوجد في الطبعات الأخرى .

إلا في التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ما عم عليه إنما هو دينه
يختلف عنه اسما ، ولا يختلف معنى إلا في صورة العبادة لا غير » . ١٠ هـ

وما في هذه الفقرة من أن الإصلاح لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا ؛
أو أن العقائد صارت به تتفق مع عقيدة الإسلام .. الخ ؛ لا ذكر فيه لشيء من
الاقتباس أو النأثر ؛ ولا يكفي لوضع هذا العنوان الصريح ، عن اقتباس الإصلاح
الديني في أوربا من الإسلام ؛ ولو كان مثل هذا المعنى الذي في العنوان ، قد
اتجه إليه الأستاذ الامام ، وهو يكتب رسالة التوحيد ، لما كفته فيه ، تلك
العبارات العامة المبهمة !!

ولقد كنت أبحث ، متمنيا أن أجد من صرح بهذا الاقتباس في الشرق
أو في الغرب لا شعر بنصرته للفكر ، ثم أمضى في بيانها وتأبيدها ؛ فلم تصل
يدي إلى شيء من ذلك . ولو أن الأستاذ الامام ، قد أشار إلى هذا الاقتباس
لكان ظهيرا لي آنس به ؛ لا تقدم إلى بيان الفكرة ، وتأبيدها ، على نحو
ما صنعت ، في كشف مسالك الاتصال والانتقال بين الدينين ؛ وما كان لذلك
من أثر في مبادئ الإصلاح المسيحي ، وآراء أصحابه . . . لكن كلام الأستاذ
الامام لا يفيد شيئا من ذلك في قرب .



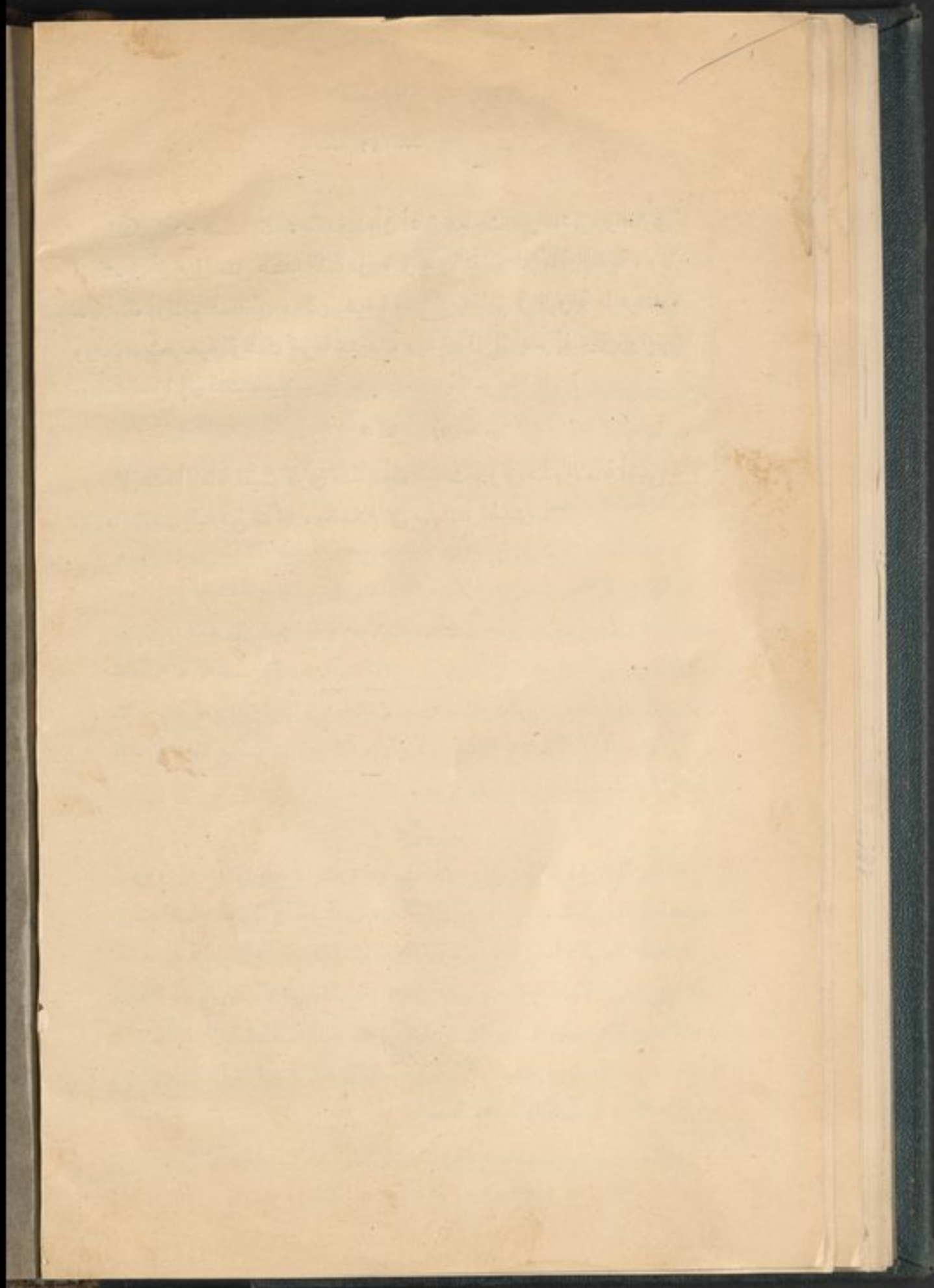
فناشر المنار قد أضاف إلى رسالة التوحيد ، عنوانا جديدا — ص ١٩٤ ط
سابعه — ليس له ظل من الوجود في الطبقات السابقة ؛ كما زاد هامشا جديدا
في الصفحة نفسها ، ليس له وجود في الطبقات السابقة . ولا رعاية في هذا
كله لشيء من الأمانة العلمية ؛ وفيه ما فيه ، من التعمية على التاريخ ، ولا مبرر
لذلك كله ولا مقتضى له . وكان خيرا من ذلك لو أراد فائدة قرائه ، أن يشير
في الهامش ، إلى ظهور هذه الفكرة ، وتكميلها بالبحث ؛ وأثبتها استفادة أوربا
من الإسلام ، في آراء الإصلاح نفسها .

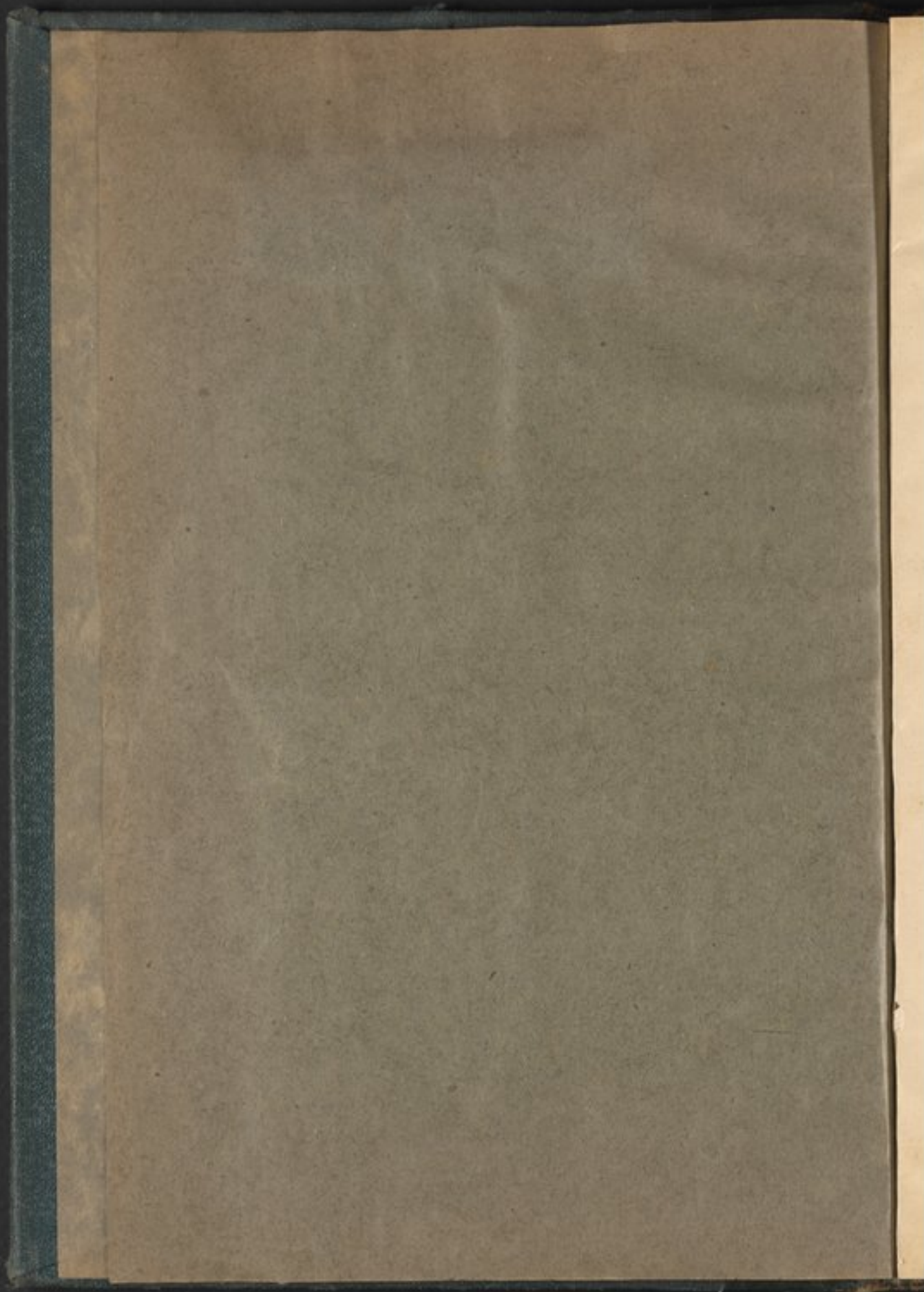
ولو مضيت في الاستنتاج الذي تبرره الشواهد السابقة ، لا تهتم تاريخ
هذه الطبعة للرسالة بعام ١٣٥٣ ؛ وأنه لون من التعمية أيضا .

لكنني أدع هذا كله ، مكنتفيا بأن أتمنى للباحث ، والناشر ، والقارىء
في الشرق أن يوقى مثل هذا التساهل ، وعدم التقدير للأمانة العلمية ، ولا
سيما أبناء أولئك السالفين ، الذين عرفنا من دقتهم في الرواية ما عرفنا ،
ورأيانهم يتخرجون في ذلك تخرجاً شديداً ، ويشيرون إلى أيسر تغيير في روايتهم
ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .



على هذه الأمانة لقيت قارئاً منذ بدأت البحث ؛ وعلى هذه الأمانة أنتهى به
إلى ما انتهيت إليه من نتائجه . والسلام على من اتبع الهدى





DATE DUE

DATE DUE

BP
172
K4x
1939

The American University in Castro
Library December 18, 1985



0 0 0 0 0 3 3 4 8 5 5



